التولي والإعراض عن الحق في القرآن الكريم

دراسة دعوية

دكتور

محمد عطيه متولي

حولية
كلية
الدراسات
الإسلامية

حولية
كلية
الدراسات
الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

حولية
كلية
الدراسات
الإسلامية

مقدمة

خلق الحق سبحانه الإنسان وعلمه البيان يعبر به عن مكنون صدره، وبه ينصر الحق أو يقف إلى جوار الباطل، وبه يجادل عن الحق أو يجادل فيه، وبه يستهزئ بالله وآياته ورسوله وبالمؤمنين، وبه يذكر الله ويوحده ويدل عليه؛ وخلال ذلك كله يدور الحوار بين بني البشر بل بين الإنسان وبين نفسه وتساق الحجج لكي يصل البشر إلى الحق – إن أخلصوا النيه – أو لكي ينصروا قولهم وإن كان فيه ما فيه من الخطل والزلل وعندما لا يصل الحوار إلى مايرجوه صاحب الحق يتسائل كيف للطرف الآخر الذي قدمت له أوضح الأدله أن يعرض عنها وأن يقف على جرف هار لا سند له من دليل عقلي أو نقلي أو واقعي؟! كيف يركن إلى وهم يزول عند أدنى نظر أو بعد تحقيق؟! وربما يعلن صاحب الحق عزمه بعد هذه المناظرة التي باءت بالفشل – في نظره – أن يكف عن الحوار وأن يتوقف عن المناقشة فلا جدوى منها عند من لا يفهمون متمثلا بقول القائل:" واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والذهب"[1] فهل هذا التصرف تصرف سديد يأوي إلى ركن شديد من دليل شرعي؟!

---

١ جامع بيان العلم وفضله وقال يروى مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم،و الفردوس بمأثور الخطاب حديث رقم ٧١٠٧عن أنس بن مالك، لأبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي الهمذاني الملقب بالكيا، تحقيق : السعيد بن بسيوني زغلول،الناشر : دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

أهمية البحث:

١-تبدو أهمية هذا البحث من أنه يتناول ركنا من أركان الدعوة وهو المدعو ويختص بصنف منه هم المعرضون والمتولون عن الحق وهم فئة يلقاها الدعاة في كل زمان ومكان.

٢-يكشف -بعون الله تعالى -عن طريقة القرآن الكريم في وصف المعرضين وبيان أسباب إعراضهم وتوليهم عن الحق.

٣-يقدم للدعاة إلى الله تعالى زادا يمكنهم من التعامل مع المعرضين والمتولين عن الدعوة.

مشكلة البحث:

هل الغاية من كل حوار أن يقتنع أحد الطرفين بما عند الآخر من رأي أم يكفي أن يسعى من تحاوره بإعادة التفكير فيما تطرحه عليه من آراء؟.

٢-ما هي أسباب الإعراض والتولي عن الدعوة إلى الله تعالى ؟

٣- ما هي صفات المدعوين الذين تتوقف عن دعوتهم؟.

٤-ما هو العلاج الذي يقدمه القرآن الكريم للمعرضين والمتولين عن الحق وما هو العلاج الذي يقدمه للدعاة إلى الله تعالى عند تعاملهم مع المعرضين؟

خطة البحث: وتتضمن مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة الفصل الأول بعنوان صفات المعرضين والفصل الثاني أسباب الإعراض والتولي والفصل الثالث علاج الإعراض والتولي وخاتمة تشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

منهج البحث:

استخدمت المنهج الاستقرائي الذي يقوم على(تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعا)[١]وقد اكتفيت بعدد من الآيات التي تتصل بموضوع البحث حسب ما تقتضيه طبيعة الدراسة و(لا يلزم من التتبع الاستقصاء بل قد يكفي الباحث أن يدرس نماذج متنوعة يستنبط منها كليات عامة ويقيس ما لم يدرسه على ما درسه)[٢] كما استخدمت المنهج التحليلي الذي يقوم على استخراج ما في النص من إشارات تتصل بموضوع البحث

١ ضوابط المعرفة صـ١٨٨

٢ ضوابط المعرفة صـ١٩٢

تمهيد :الإعراض والتولي في كتب اللغة وكتب التعريفات وفي القرآن الكريم:

أولا: التولي والإعراض في كتب اللغة:

(العين والراء والضاد بناءٌ تكثرُ فروعُه، وهي مع كثرتها ترجعُ إلى أصلٍ واحد، وهو العَرْض الذي يُخالف الطُّول)[1].

وقد جاء التولي عند ابن منظور بمعنى الإعراض وبمعنى الموالاة فقال: (تَوَلَّى عنه إذا أَعْرَضَ و التَّوَلِّي يكون بمعنى الإِعْراضِ ويكون بمعنى الاتِّباع قال الله تعالى : {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ } [محمد: ٣٨]أَي إِنْ تُعْرِضوا عن الإِسلام . وقوله تعالى : {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة: ٥١]معناه مَن يَتَّبِعْهُم ويَنْصُرْهم)[2] .

كما ورد التولي عند الأزهري بمعنى الإقبال وبمعنى الانصراف (والتَّولية، تكون إقبالاً، ومنه قولُه جلّ عزّ : (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) (البقرة : ١٤٤)، أي : وَجِّه وجهك نحوه وتلقاءَه .

وكذلك قوله تعالى : (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا) (البقرة : ١٤٨) .قال الفراء : هو مُسْتقبلها .والتَّولية، في هذا الموضع : إقْبال .

قال : والتّولية، تكون انصرافاً ؛ قال الله تعالى : (ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ) (التوبة : ٢٥))[3] .

---

١ مقاييس اللغة ٤/ ٢١٩

٢ لسان العرب ١٥/ ٤٠٥

٣ تهذيب اللغة ـ ١٥/ ٣٢٤

وتأتي أعرض بمعنى: صدف[١]،وبمعنى أضرب عنه[٢]،وبمعنى صفح عنه[٣] وأعرض عنه: ختم عليه بابه.[٤]

(والإعْراضَ من نتائجِ العُنُقِ، فالمَآلُ واحدٌ ويُقالُ : ثَنَى عنهُ فلانٌ عِطْفَه : أي أَعْرَضَ عنه، نَقَلَه الجوهريُّ)[٥]

و(تَولَّى عنه : أَعْرَضَ و وَلَّى هارباً أَي أَدبر)[٦]وبتأمل ما سبق نرى أن أهل اللغة لا يفرقون بين الإعراض والتولي

ثانيا:التولي والإعراض عند المفسرين:

ساوى صاحب التبيان بين الصفح والإعراض والتولي فقال (فاصفح عنهم أعرض عنهم وأصل الصفح أن تنحرف عن الشيء فتوليه صفحة وجهك أي ناحية وجهك وكذلك الإعراض هو أن تولي الشيء عرضك أي جانبك ولا تقبل عليه)[٧]

كما ساوى الإمام أبو بكر الرازي بين الإعراض والصد فقال:(الإعراض عن الشئ :الصد عنه يقال أعرض فلان عني أي أولاني عرض وجهه

---

١ تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب صـ ٢٠٠

٢قال عَزَّ وجَلَّ : { أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذّكْرَ صَفْحاً } (الزخرف : ٥) أَي نُهْمِلُكُم فَلَا نُعَرّفكم ما يَجِبُ عَلَيْكُم لِأَنْ كُنْتُم قَوْماً مُسْرِفِين تاج العروس من جواهر القاموس ٣/ ٢٤١

٣ تاج العروس من جواهر القاموس ٦/ ٥٤٠

٤ تاج العروس من جواهر القاموس ٣٢/ ٤٧

٥ تاج العروس من جواهر القاموس ٢٤/ ١٦٩

٦ لسان العرب ٤٠٥/١٥

٧ التبيان تفسير غريب القرآن شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري صـ ٣٧٥، تحقيق : د.فتحي أنور الدابولي،الناشر : دار الصحابة للتراث بطنطا – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢

يعني ناحيته وجانبه دون وسطه ومنه قوله تعالى {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } [النساء: ٦٣]وقوله تعالى {وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ} [البقرة: ٨٣]ونظائره كثيرة. وقوله تعالى {وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ } [الأنبياء: ٣٢] أي عن الاستدلال بها على أن الله تعالى واحد {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا } [يوسف: ٢٩]أي اكتمه ولا تذكره)[1] وقد جعل الإمام القرطبي التولي في الأصل إعراضا حسيا قال(قوله تعالى: (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) تولى تفعل، وأصله الاعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الاعراض عن الأوامر والأديان والمعتقدات اتساعا ومجازا)[2]

وتورد كاملة الكواري معاني التولي فتقول ({فَأَلْقَهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ} [النمل: ٢٨]أي استتر وتوار {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة: ١١٥]أي فأينما توجهوا وجوهكم فول وجهك شطر المسجد الحرام أي وجهه والتولية الاستقبال ومنه قوله تعالى { وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} [البقرة: ١٤٨] وجهة أي مستقبلها ... والتولية الانصراف ومنه قوله تعالى {يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ } [آل عمران: ١١١]والتولية: أيضا التولي يقال وليت وتوليت بمعنى واحد قيل ومنه قوله تعالى {هُوَ مُوَلِّيهَا} [البقرة: ١٤٨]أي متبعها وراضيها والتولي الإعراض أيضا ومنه قوله تعالى {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ } [محمد: ٣٨]أي وإن تعرضوا عن الإسلام وقوله تعالى {عَبَسَ وَتَوَلَّى } [عبس: ١] ونظائره كثيرة، والتولي الاتباع أيضا ومنه قوله تعالى {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ } [المائدة:

---

١ تفسير غريب القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي تحقيق د/عبد الله محمد عبدالرحمن احمد ٦١١/١ الناشر وزارة الأوقاف – الكويت الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م

٢ تفسير القرطبي ١/ ٤٣٨

٥١]أي ومن يتبعهم وينصرهم وتولى الأمر أي وليه ومنه قوله تعالى {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ } [النور: ١١]أي ولي حديث الإفك وإشاعته ولى مدبرا أي هرب)[١]

والتولي والإعراض عند الإمام الطبري بمعنى واحد :

(قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ } [البقرة: ٦٤]ثم أعرضتم. وإنما هو"تفعلتم" من قولهم:"ولاني فلان دبره" إذا استدبر عنه وخلفه خلف ظهره. ثم يستعمل ذلك في كل تارك طاعة أمر بها، ومعرض بوجهه. يقال:"قد تولى فلان عن طاعة فلان، وتولى عن مواصلته"، ومنه قول الله جل ثناؤه:(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) [التوبة: ٧٦]، يعني بذلك: خالفوا ما كانوا وعدوا الله من قولهم:(لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ)[٢]

وكذلك التولي والإعراض عند الإمام ابن عطية بمعنى واحد (و { تولى } معناه أعرض، وأصل { تولى } في المعنى أن يتعدى بحرف، فنقول تولى فلان عن الإيمان، وتولى إلى الإيمان لأن اللفظة تتضمن إقبالاً وإدباراً، لكن الاستعمال غلب عليها في كلام العرب على الإعراض والإدبار، حتى استغني فيها عن ذكر الحرف الذي يتضمنه)[٣]

وقد تناول بن عاشور التولي والإعراض في عدة مواضع من تفسيره ويمكن إجمالها فيما يلي:

---

١ تفسير غريب القرآن كاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري، ١١٨١/٢ الناشر: دار بن حزم
الطبعة: الأولى ٢٠٠٨م

٢ تفسير الطبري٢/ ١٦٢

٣ المحرر الوجيز ٢/ ١٥٩

التولي حقيقته المفارقة وقد يستعمل مجازا في عدم الاهتمام بما يتحدث به جليسك وعصيانه فيما يأمر به

أما الإعراض فهو عدم النظر إلى الشئ وقد يستعار للعفو عن من أساء وقد يكون الإعراض عن كراهية

قال الشيخ بن عاشور:(التولي حقيقته: المفارقة كما في قصة إبراهيم {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} [الصافات: ٩٠]، واستعمل هنا[١] مجازا في عدم الاهتمام بما يقولونه وترك النكد من إعراضهم)[٢].

(والتولي حقيقته الانصراف والإدبار، كما في قوله تعالى: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا} [البقرة: ٢٠٥] وفي قوله: {مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ } [البقرة: ١٤٢]. واستعمل هنا مجازا في العصيان وعدم الإصغاء إلى الدعوة)[٣].

ويصور الإمام ابن عاشور التطور الذي لحق كلمة الإعراض ويذكر أن حقيقته إهمال الشئ رغبة في التباعد عنه ثم استخدم في الإمساك عن المخالطة وكأن الرغبة في التباعد التي نشأت عند أحد المتحاورين تحققت بالتباعد الحسي أو المعنوي فقد يجمعهما موضع لكن أحدهما لا يقبل قول الآخر ثم أطلق على العفو عن من تعرض عنهم

فيقول: وحقيقة الإعراض عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه، مشتق من العرض- بضم العين- وهو الجانب، فلعل أصل الهمزة في فعل أعرض للدخول في الشيء، أي دخل في عرض المكان، أو الهمزة

---

١ يشير إلى قوله تعالى فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ

٢ التحرير والتنوير ٢٣/ ١٩٦

٣ التحرير والتنوير ٥/ ١٣٥

للصيرورة، أي صار ذا عرض، أي جانب، أي أظهر جانبه لغيره، ولم يظهر له وجهه، ثم استعمل استعمالا شائعا في الترك والإمساك عن المخالطة والمحادثة، لأنه يتضمن الإعراض غالبا، يقال: أعرض عنه كما يقال: صد عنه، كقوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [الأنعام: ٦٨] ولذلك كثر هذا اللفظ في أشعار المتيمين رديفا للصدود، وهذا أقرب المعاني إلى المعنى الحقيقي، فهو مجاز مرسل بعلاقة اللزوم، وقد شاع ذلك في الكلام ثم أطلق على العفو وعدم المؤاخذة بتشبيه حالة من يعفو بحالة من لا يلتفت إلى الشيء فيوليه عرض وجهه، كما استعمل صفح في هذا المعنى مشتقا من صفحة الوجه،أي جانبه، وهو أبعد عن المعنى الحقيقي من الأول لأنه مبني على التشبيه)[١].

ويحدد الإمام ابن عاشور العلاقة بين الإعراض والتولي (الإعراض والتولي مترادفان أو متقاربان)[٢]

وقد جعل الشيخ أبو زهرة التولي بمعنى الإقبال على الشئ ومنه الولاية أو الانصراف عنه (أصل تولي الأمر أو الشخص الإقبال عليه، والانصراف إليه؛ ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)، أي من يتخذ منهم ولاية ونصرة، ويقبل عليهم فهو منهم. وإذا عُدِّي هذا الفعل بـــ " عن " أو قُدرت في القول كانت بمعنى الانصراف عن الأمر وعدم الإقبال عليه؛ ومن ذلك قوله تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

---

١ التحرير والتنوير ٥/ ١٠٨

٢ التحرير والتنوير ١٢٠/٢٧

بِالْمُفْسِدِينَ)، وقوله تعالى: (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ))[1].

ثالثا:التولي والإعراض في كتب التعريفات: أما أبو البقاء فقد جعله بمعنى الولاية وإذا تعدى بإلى يكون معناه الإقبال وإذا تعدى بعن يكون معناه الإعراض (التولي تولاه اتخذه وليا {لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } [الممتحنة: ١٣] وتولى إليه أقبل {ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ } [القصص: ٢٤] {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ } [يوسف: ٨٤] أعرض {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ} [البقرة: ١٣٧]وفي التعدي بنفسه يقتضي معنى الولاية وحصوله في أقرب المواضع يقال وليت سمعي كذا وعيني كذا وفي التعدي ب { عن } يقتضي معنى الإعراض وترك القرب.

وقد يجب حمل التولي فيما لا يمكن الحمل على معنى الإعراض إما على لازم معناه وهو عدم الانتفاع لأنه يلزم الإعراض أو على ملزومه وهو الارتداد لأنه يلزمه الإعراض)[2].

الألفاظ ذات الصلة:

١-الإدبار {ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥] { تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى} [المعارج: ١٧] قد يكون التولي حركة إلى غير جهة الحق ولكنه إلى أي جهة وجهات الباطل كثيرة أما الإدبار فهو حركة عكس حركة الحق تضادها في الاتجاه فإذا شرق الحق غرب المدبرون (

٢-الإباء: هو امتناع باختيار وأبى الشيء لم يرضه و أبى عليه امتنع وهو غير الاستكبار وكل إباء امتناع بلا عكس فإن الإباء شدة الامتناع

---

١ زهرة التفاسير ٣/ ١١٦٢

٢ كتاب الكليات ـ لأبى البقاء الكفومى صـ ٤٧٤

وإباء الشكيمة مثل فيه ويقال أبى على فلان وتأبى عليه إذا امتنع ٣- والاستنكاف: تكبر في تركه أنفة وليس في الاستكبار ذلك وإنما يستعمل الاستكبار حيث لا استخفاف بخلاف التكبر فإنه قد يكون باستخفاف.

٤- والتكبر هو أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك بالتشبع وهو التزين بأكثر ما عنده ..والإعراض وهو أن تولي الشيء عرضك أي جانبك ولا تقبل عليه والتولي الاعراض مطلقا ولا يلزمه الادبار فإن تولي الرسول عن ابن أم مكتوم لم يكن بالإدبار والتولي بالإدبار قد يكون على حقيقته كما في قوله تعالى {بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ } [الأنبياء: ٥٧] وقد يكون كناية عن الانهزام كما في قوله تعالى { ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } [التوبة: ٢٥].

٥-والصد هو العدول عن الشيء عن قلى يستعمل لازما بمعنى الانصراف والامتناع {يَصُدُّونَ عَنْكَ} [النساء: ٦١] {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [محمد: ١] ومتعديا بمعنى الصرف والمنع الذي يطاوعه الانصراف والامتناع {وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ } [القصص: ٨٧] {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [الفتح: ٢٥]

٦- ونظير صد صدف حيث يستعمل لازما بمعنى أعرض ومتعديا بمعنى صدف غيره {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} [الأنعام: ١٥٧] والآية محتملة لها كآية {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ } [النساء: ٥٥]

الفرق بين التولي والإعراض: والتولي قد يكون لحاجة تدعو إلى الانصراف مع ثبوت العقد والإعراض الانصراف عن الشيء بالقلب قال بعضهم: المعرض والمتولي يشتركان في ترك السلوك إلا أن المعرض أسوأ حالا لأن المتولي متى ندم سهل عليه الرجوع والمعرض يحتاج

إلى طلب جديد وغاية الذم الجمع بينهما والتولي إذا وصل بإلى يكون بمعنى الإقبال عليه {ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ} [القصص: ٢٤]وإذا وصل بعن لفظا أو تقديرا اقتضى معنى الاعراض وترك القرب وعليه {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} [آل عمران: ٦٣])[1] والذي يبدوا من ملاحظة تعريف أهل اللغة للتولي والإعراض أن التولي أشد من الإعراض إذ يقولون الإعراض ناتج العنق ويمكن أن يفهم من ذلك أن الجسم في جانب والقلب والعقل في جانب آخر أما التولي فيوحي بحركة الجسم والفكر معا بما يمثل مفارقة بدنية وروحية للدعوة والداعية وعلى ذلك يكون التولي أشد من الإعراض قال الإمام المناوي: (التولي الإعراض المتكلف بما يفهمه التفعل ذكره الحرالي)[2]

وقد اجتمع التولي والإعراض في أربعة مواضع من كتاب الله تعالى مما يدل على أن لكل منهما معنى مستقلا ويمكن القول أن التولي إعراض وزيادة

الأول: قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [آل عمران: ٢٣]

والثاني: قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا

---

١ كتاب الكليات ـ لأبى البقاء الكفومى صـ ١٨،١٩ بتصرف

٢ التوقيف على مهمات التعاريف صـ ٢١٦

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ } [البقرة: ٨٣]

والثالث: قوله تعالى: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٢، ٢٣]

والرابع: قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [التوبة: ٧٥، ٧٦]

ولذا قال تعالى في جواب الشرط: (لَتَوَلَّوْا وهُم مُّعْرِضُونَ) وهذه صورة حال المعرضين بعد أن كاد يدخل نور الإيمان قلوبهم، التولي أن يولي جنبه بدل وجهه ولإظهار أنه معرض شبهت حالهم وقد أعرضوا عن الحق وتركوه بحال الذين يديرون وجوههم وهم معرضون، غير مقبلين)[١].فكأن أشد حالات الصدود هي التولي مع الإعراض

ويرى الشيخ رشيد رضا أن الجمع بين التولي والإعراض دال على حالة مستقرة في النفس تمنع صاحبها من قبول الحق اما وجود أحدهما منفردا فهو دال على حالة قد يعقبها قبول الحق قال((لَتَوَلَّوْا) عَنِ الْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ لِمَا فَهِمُوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ مُعْرِضُونَ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ بِقُلُوبِهِمْ عَنْ قَبُولِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ – كَمَا هُوَ مَدْلُولُ الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ – كَرَاهَةً وَعِنَادًا لِلدَّاعِي إِلَيْهِ وَلِأَهْلِهِ، لَا تَوَلِّيًا عَارِضًا مُؤَقَّتًا، وَفَرْقٌ عَظِيمٌ بَيْنَ التَّوَلِّي الْعَارِضِ لِصَارِفٍ مُؤَقَّتٍ، وَتَوَلِّي الْإِعْرَاضِ وَالْكَرَاهَةِ الَّذِي فَقَدَ

١ زهرة التفاسير ٦/ ٣٠٩٦

صَاحِبُهُ الِاسْتِعْدَادَ لِلْحَقِّ، وَقَبُولَ الْخَيْرِ فَقْدًا تَامًّا)[1] وهو بذلك يتفق مع أبي البقاء الكفوي

وقد وافقه الشيخ الطاهر بن عاشور{وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣] (وَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ مِنَ التَّوَلِّي مَا يُعْقِبُهُ إِقْبَالٌ، وَهُوَ تُوَلِّي الَّذِينَ تَوَلَّوْا ثُمَّ أَسْلَمُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِثْلَ مُصْعَبِ بن عُمَيْر)[2]

ونلحظ أن أول الآيات تتكلم عن المعرضين ممن لهم حظ من العلم بالكتاب وثانيهما تتحدث عن عموم بني إسرئيل وثالثها تتحدث عن من لا يسمع ولا يعقل وإذا سمع أو عقل أعرض ونئا بجانبه ورابعها تتحدث عن إنسان يبدي الإيمان ويسأل الله من فضله ويتعهد بطاعة الله في ماله فلما أفاء الله عليه أخلف وعده

١ تفسير المنار ٥٢٢/٩

٢ - التحرير والتنوير ٩/ ٣١١

الفصل الأول صفات المعرضين

ذكر الله تعالى صفات المعرضين عن الحق في كتابه الكريم ويمكن تقسيم هذه الصفات إلى صفات تختص بالمعرضين من العوام وصفات تختص بالمعرضين من العلماء

المبحث الأول من صفات المعرضين من العوام :

١-عدم الرجوع إلى الحق مع وضوح الدليل ومن الأمثلة على ذلك قوم رأوا آية باهرة قاهرة - وهي إحياء المقتول وإخباره عن من قتله - ومع كل هذا البيان ينبئنا القرآن عن موقفهم من الحق،يقول الله تعالى {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [البقرة: ٧٤]

قست (قلوبهم - عن الإذعان لواجب حق الله عليهم، والإقرار له باللازم من حقوقه لهم- (فهي) أشد صلابة من الحجارة)[١].

وإنما كان بعض الحجارة ألين من قلوبهم(إذ كانوا بالصفة التي وصفهم الله بها من التكذيب لرسله، والجحود لآياته، بعد الذي أراهم من الآيات والعبر، وعاينوا من عجائب الأدلة والحجج، مع ما أعطاهم تعالى ذكره من صحة العقول، ومنّ به عليهم من سلامة النفوس التي لم يعطها الحجر والمدر، ثم هو مع ذلك منه ما يتفجر بالأنهار، ومنه ما يتشقق بالماء، ومنه ما يهبط من خشية الله)[٢]

---

١ تفسير الطبري٢/ ٢٣٥ بتصرف يسير

٢ تفسير الطبري٢/ ٢٤٠

٢- الاستمرار على حالة الإعراض اتباعا للهوى ف(مدارَ الردِّ والقبولِ عندهم هو المخالفةُ لأهواء أنفسِهم والموافقةُ لها لا شيءٍ آخرَ)[١]

٣- الاستكبار عن قبول الحق

٤- ملاقاة من يأمرهم بالمعروف بالتكذيب تارة والقتل تارة أخرى {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} [البقرة: ٨٧]

٥-سوء استقبالهم للوحي الإلهي الذي تأتيهم بهم رسلهم بدءا بموسى عليه السلام واستمرار فيمن جاء بعده مع تعدد طرق الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم - في الدعوة إلى الله تعالى (مثل يوشع وإلياس وأرمياء وداوود مؤيدين لشريعته (موسى عليه السلام)ومفسرين وباعثين للأمة على تجديد العمل بالشريعة مع تعدد هؤلاء الرسل واختلاف مشاربهم في الدعوة لذلك المقصد من لين وشدة، ومن رغبة ورهبة، ثم جاء عيسى مؤيدا وناسخا ومبشرا فكانت مقابلتهم لأولئك كلهم بالإعراض والاستكبار وسوء الصنيع وتلك أمارة على أنهم إنما يعرضون عن الحق لأجل مخالفة الحق أهواءهم وإلا فكيف لم يجدوا في خلال هاته العصور ومن بين تلك المشارب ما يوافق الحق ويتمحض للنصح)[٢]. وقد نتج عن هذا الطبع السئ إعراضهم عما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من هداية إلهية (وإن قوما هذا دأبهم يرثه الخلف عن السلف لجديرون بزيادة التوبيخ ليكون هذا حجة عليهم في أن تكذيبهم للدعوة المحمدية مكابرة وحسد حتى تنقطع حجتهم إذ لو كانت

---

١ تفسير أبي السعود ١/ ١٦١

٢ التحرير والتنوير ١/ ٥٩٢

معاندتهم للإسلام هي أولى فعلاتهم لأوهموا الناس أنهم ما أعرضوا إلا لما تبين لهم من بطلانه)[١].

٦- ادعائهم أن بين قلوبهم وبين القرآن حجب ومن ثم لن تستطيع حجج القرآن أن تقنعهم

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ } [البقرة: ٨٨]والغلف : بضم وسكون وبضمتين جمع أغلف، وهو ما يحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء . والمراد أننا لا نعقل قولك، ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك ؛ فهو بمعنى قوله – تعالى – : {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} [فصلت: ٥])[٢].

٧- الإعراض بسبب حب الدنيا {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة: ٨٦]، الإشارة إلى الذين سفكوا دماءهم وأخرجوا أنفسهم من ديارهم، ونقضوا مواثيق الله التي جاءتهم بالأحكام التكليفية، والإشارة إلى الموصوفين بصفات تشير إلى أن هذه الصفات هي سبب الحكم الذي يقترن باسم الإشارة، أي أن هؤلاء بسبب أوصافهم قد اشتروا الحياة الدنيا بثمن هو أغلى الأثمان، وهو الآخرة)[٣].

٨- التلون وتبديل المواقف،كان أهل الكتاب يعلنون اقتراب ظهور نبي مرسل من الله تعالى وأنهم سيكونون أتباعه وأنصاره فلما ظهر صلى الله عليه وسلم كفروا به وعادوه وكادوا له ولمن معه {وَلَمَّا جَاءَهُمْ

---

١ التحرير والتنوير ١/ ٥٩٣

٢ تفسير المنار ١/ ٣١٣

٣ زهرة التفاسير ١/ ٣٠٠

كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٨٩] يقول تعالى: { وَلَمَّا جَاءَهُمْ } يعني اليهود { كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } وهو: القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم { مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ } يعني: من التوراة، وقوله: { وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا } أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا } أي من الحق وصفة محمد صلى الله عليه وسلم "كَفَرُوا به" فلعنة الله على الكافرين)[1]. هذه النفوس المتمردة التي تعلن عن اتباعها للحق متى ظهر أهله لكنها تتنكر له وتكفر به عند أول ظهوره مع موافقته لما عندها مما أنزل الله عليها

لقد (راعهم كونه (صلى الله عليه وسلم) بعث في العرب فحسدوه، فحملهم الحسد على الكفر به جحودا وبغيا)[2]

(وبدل أن يذعنوا للحق الذي عرفوه أنكروه وكفروا به، وهكذا شأنهم هم وأسلافهم دائما يعرفون الحق ويكفرون به، عرفوا باطل فرعون ومع ذلك اتخذوا العجل.

عبر قوله تعالى عن إدراكهم للنبي – صلى الله عليه وسلم – وعلمهم به بأنهم عرفوه، والمعرفة هي العلم الجازم المطابق للواقع عن دليل،

---

١ تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٥

٢ تفسير المنار ١/ ٣١٥

ومع ذلك كفروا به، فكانوا مطرودين عن رحمة الله، والحق الذي جاء به النبيون، ولذا قال تعالى: (فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ))[1]

٩- العنصرية البغيضة التي تتمثل في الادعاء بالإيمان بما أنزل الله عليهم دون ما أنزل على غيرهم قال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١))

وهذا الصنف من المدعويين(جاهل خالي الذهن من المعرفة بالإسلام إلا أنه مغلق النفس عن تقبل أية معرفة تتعلق بحقائق الإسلام وأحكامه وشرائعه لأن له عقائد ثابتة راسخة مضادة لما يراد إعلامه به وتوصيله إليه وهو لا يقبل بها بديلا تعصبا لتقاليده ومواريثه وعاداته التي هي جزء من ذاته ولو كانت باطلة وضارة وفاسدة أو حرصا على تحقيق أهوائه وشهواته ومصالحه التي يحصل عليها ما دام مستمسكا بملته الباطلة أو استجابة لنازع كبره ورغبته في الفجور المنافية للإيمان والإسلام له)[2] إن هؤلاء المعرضين قوم برعوا في تقديم المعاذير والحجج الباطلة حتى لا يؤمنوا بالحق ويصور الشيخ ابن عاشور انتقالهم في أودية الضلال من باطل إلى باطل فيقول ([هذه الآية]مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِه: وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّه [الْبَقَرَة: ٨٩] الْمَعْطُوف عَلَى قَوْلِه: وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ [الْبَقَرَة: ٨٨] وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ يَصِحُّ اعْتِبَارُهُ مَعْطُوفًا عَلَى وَقَالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ عَلَى الْمَعْرُوفِ فِي اعْتِبَارِ الْعَطْفِ عَلَى

---

١ زهرة التفاسير ١/ ٣١١

٢ فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الشيخ /عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني صـ ١٢٦

مَا هُوَ مَعْطُوفٌ وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ عَطْفِ حِكَايَاتِ أَحْوَالِهِمْ فِي مَعَاذِيرِهِمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَإِذَا دُعُوا قَالُوا: قُلُوبُنَا غُلْفٌ وَإِذَا سَمِعُوا الْكِتَابَ أَعْرَضُوا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُنْتَظِرِيهِ حَسَدًا أَنْ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَإِذَا وُعِظُوا وَأُنْذِرُوا وَدُعُوا إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ وَبِأَنَّهُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَأَنْ يَنْظُرُوا فِي دَلَائِلِ كَوْنِهِ مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَعْرَضُوا وَقَالُوا: نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا أَيْ بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِنَا مُوسَى، وَهَذَا هُوَ مَجْمَعُ ضَلَالَاتِهِمْ وَمَنْبَعُ عِنَادِهِمْ)[1]

ولو كانوا حقا حريصين على اتباع ما أنزل الله لتأملوا في القرآن وما فيه من دلائل على أنه تنزيل من حكيم حميد ولقارنوا بين هدايات القرآن وما في كتبهم من كلام الله تعالى

(إنهم قوم لَا يؤمنون بشيء لَا بما عندهم، ولا بما أنزل الله من قرآن كريم، ولذا قال تعالى مثبتا كفرهم بكل شيء، بالوقائع التي كانت من أسلافهم، وارتضوها هم، فقال تعالى: (قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كنتُم مُّؤْمِنِين). والمعنى: قل لهم يا نبي الله، إن كنتم تزعمون أنكم آمنتم بما عندكم، فلم تقتلون أنبياء الله؛ أي الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى إليكم، وذكر الأنبياء مضافين إلى الله تعالى لإثبات جحودهم المطلق، وأنهم يعاندون أوامر الله تعالى سواء أكان من بعثه من ولد إسحاق أم كان من ولد إسماعيل)[2]

١٠- التعنت : ومن صفات هؤلاء المجادلين بالباطل المعرضين عن الحق الذين لا يهتدون سبيلا، طلب تحقيق ما يعجز عنه الدعاة وهو ما

---

١ التحرير والتنوير ١/ ٦٠٦

٢ زهرة التفاسير ١/ ٣١٥

ورد في قول الله تعالى{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [البقرة: ٥٥](قال ابن فورك: يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى" أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً" [النساء: ١٥٣] وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام.)[١] وما موسى عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه إلا عباد لله تعالى لا يملكون لأنفسهم شيئا وهم مقرون أنهم لا حول لهم ولا قوة إلا بالله تعالى فليس في إمكانه عليه الصلاة والسلام أن يريهم الله ولا أن يريهم آية من الآيات إلا بإذن الله تعالى ويصدق عليه قول الحق سبحانه إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل ثم إن رؤية الله تعالى ممكنة لكن أبصارهم لم تتأهل لها بل ليس في مقدور هذه الأبصار أن ترى أشياء موجودة حولها في الدنيا من مثل الكائنات الدقيقة فكيف ترى من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير سبحانه وتعالى،قال الإمام بن كثير (واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق، إذ سألتم رؤيتي جهرة عياناً، مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم)[٢]

ومهما أصاب هذه القلوب من فساد وهجران للحق وإعراض عنه إلا أنها قد تأتي عليها لحظة أو لحظات تختلي فيها بنفسها ويبرق لها بارق من نور الحق فإما أن تتبعه أو تتولى عنه

رأى قوم إبراهيم آلهتهم محطمة أمامهم فقالوا {مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا

١ تفسير القرطبي ١/ ٤٠٣

٢ تفسير ابن كثير ١/ ٢٦٤

فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) } [الأنبياء: ٥٩ – ٦٦] بعد أن سمعوا جواب إبراهيم عليه السلام وما فيه من قوة ترد النفس الحائرة إلى الحق تساءلوا فيما بينهم وبين أنفسهم حتى ظهر الحق لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد بيد أن الظلمات التي ملئت قلوبهم غطت الحق بل طمست نوره في قلوبهم، لكنهم (حين قال لهم إبراهيم صلوات الله عليه(بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) رجعوا إلى عقولهم، ونظر بعضهم إلى بعض)[1]، ويضيف الشيخ بن عاشور معنى آخر لرجوعهم إلى أنفسهم بعد أن ساق هذا المعنى الذي ساقه الإمام الطبري (وَقَوْلُهُ تَعَالَى فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ فَرَجَعَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، أَيْ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى خِطَابِ بَعْضٍ وَأَعْرَضُوا عَنْ مُخَاطَبَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى:فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ [النُّور: ٦١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ [النِّسَاء: ٢٩]، أَيْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ.وَضَمَائِرُ الْجَمْعِ مُرَادٌ مِنْهَا التَّوْزِيعُ كَمَا فِي: رَكِبَ الْقَوْمُ دَوَابَّهُمْ)[2]لقد (تذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرّة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه، يستحيل أن يقدر على دفع مضرَّةٍ عن غيره أو جلبِ منفعة

١ تفسير الطبري١٨/ ٤٦٢

٢ التحرير والتنوير ١٧/ ١٠٣

له فكيف يستحق أن يكون معبوداً)[١]وكانت ثمرة هذه المراجعة أن استبان لهم الحق فقالوا: إنكم أنتم الظالمون ({ فَقَالُواْ } أي قال بعضهم لبعض فيما بينهم : { إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ } [الأنبياء: ٦٤]أي بهذا السؤالِ لأنه كان على طريقة التوبيخِ المستتبِعِ للمؤاخذة أو بعبادة الأصنام، لا من ظلمتوه بقولكم : إنه لمن الظالمين أو أنتم الظالمون بعبادتها لا مَنْ كسرها)[٢] (ومن صفات الداعية الناجح أنه يقوم بتحريك عمليات الإدراك العقلي حول القضية موضوع الدعوة انظر إلى إبراهيم عليه السلام وهو يخاطب عبدة الأصنام لقد أوصلهم بأسئلته إلى أن يقروا له بالصدق) لكنهم ما لبثوا أن تولوا عن الحق الذي لاح لهم وهو ما وصفه الله تعالى بقوله . ({ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ } أي انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شبّه عودَهم إلى الباطل بصيرورة أسفلِ الشيءِ أعلاه)[٣]

لقد (تَغَيَّرَتْ آرَاؤُهُمْ بَعْدَ أَنْ كَادُوا يَعْتَرِفُونَ بِحُجَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَرَجَعُوا إِلَى الْمُكَابَرَةِ وَالِانْتِصَارِ لِلْأَصْنَامِ، فَقَالُوا: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ، أَيْ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَامَ لَا تَنْطِقُ فَمَا أَرَدْتَ بِقَوْلِكَ فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ إِلَّا التَّنَصُّلَ مِنْ جَرِيمَتِكَ)[٤].

---

١ تفسير أبي السعود ٤/ ٤٢٤

٢ تفسير أبي السعود ٤/ ٤٢٤

٣ تفسير أبي السعود ٤/ ٤٢٥

٤ التحرير والتنوير ١٧/ ١٠٤

المبحث الثاني من صفات المعرضين من العلماء:

١-اتباع الهوى بعد أن تبين لهم الحق من الباطل، تحدث القرآن الكريم عن طائفة من أهل الكتاب لهم علم به، هذا العلم خليق أن يجعل الكتاب نورا يستهدون به في ظلمات الحياة وميزانا يزنون به أعمالهم فإذا ما حدثت خصومة بينهم وبين غيرهم ظن خصومهم أن هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب سيعودون إلى الحق عما قريب فلهم علم بالكتاب، لكنه يفاجأ بما لم يتوقع إذ يجدهم يعرضون عن حكم الله فالكتاب يحكم بالحق وهم من الحق فروا وقد سجل القرآن الكريم نعيه على هذا الصنف من البشر قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [آل عمران: ٢٣] وقد تعددت أقوال العلماء في الكتاب الذي دعو إلى التحاكم إليه فمن قائل التوراة ومن قائل القرآن،قال الشيخ رشيد رضا(أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس قال : دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه، قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : فهلما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم . فأنزل الله : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ} [آل عمران: ٢٣] إلى قوله : {يَفْتَرُونَ} [آل عمران: ٢٤] ذكر هذا التخريج السيوطي في لباب النقول وأخرجه أيضا ابن جرير في تفسيره . فكتاب الله الذي يدعون إليه على هذا الوجه هو التوراة.

قال ابن جرير : وقيل بل ذلك كتاب الله الذي أنزله على محمد، وإنما دعيت طائفة منهم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليحكم بينهم بالحق فأبت .روي ذلك عن قتادة وابن جريج ورجح الأول، ومعناه : ألم تر يا محمد إلى هؤلاء الذين تعجب لعدم إيمانهم بك على وضوح ما جئت به كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذي يؤمنون به إذا لم يوافق أهواءهم ؟ ووقائع الأحوال في عصر التنزيل تتفق مع كل من القولين، فقد كانوا يتولون عن حكم التوراة إذا خالف أهواءهم كما يفعل أهل كل دين في طور انحلال الدين وضعفه، وكانوا ربما تحاكموا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – عازمين على قبول حكمه، حتى إذا كان على غير ما أحبوا خالفوه، كما فعلوا يوم زنا بعض أشرافهم وحكّموه فحكم بينهم بمثل حكم كتابهم فتولوا وأعرضوا عن قبول حكمه ؛ لأنهم إنما فزعوا إليه ليخفف عنهم)[1].

ومعنى ذلك أنهم مع أهوائهم فإن وافقها الكتاب الذي أوتوا نصيبا منه اتبعوه وإن لم يبلغهم الكتاب آمالهم تولوا وهم معرضون.

٢– عدم تأثر قلوبهم بما عندهم من العلم،وإعراضهم عن حكم الكتاب الذي أوتوا نصيبا منه دليل على أنه لم يبلغ شغاف قلوبهم وإنما يعلمون ظاهرا منه يرددون ألفاظه دون أن يفهموا معانيه ومنهم من يفقه المعنى لكن تحول شهوات الدنيا بينه وبين التطبيق يقول صاحب المنار :

(فالنصيب عبارة عن تمسكهم بالألفاظ بتعظيمها وتعظيم ما تكتب فيه مع عدم العناية بالمعاني بفقهها والعمل بها قال : ولك أن تقول : إن ما يحفظونه من الكتاب هو جزء من الكتاب الذي أوحاه الله إليهم (أو قال

١ تفسير المنار ٣/ ٢١٨

الكتب) وقد فقدوا سائره وهم مع ذلك لا يقيمونه بحسن الفهم له والتزام العمل به)[1]

(وقوله تعالى: (أُوتُوا نَصيبًا مِّنَ الْكِتَابِ) يشير إلى أمرين:

أولهما: أنهم يتعلقون باسم الكتاب ولكن لَا يأخذون به؛ فالنصيب المراد به الجزء المعنوي من الكتاب، وهو أنهم تلقوا كتاب التوراة و أخذوا منه ترديده وذكره، ولم يأخذوا منه الهداية والإيمان.

وثانيهما: أنهم حرفوا هذا الكتاب وغيروه، فما عندهم هو نصيب من الكتاب أي جزء منه، وليس كل الكتاب[2]**.**

ولما كان عندهم نصيب من الكتاب ظن من يدعوهم أن فيهم خيرا وأن الكتاب قد أثمر في نفوسهم خشية من الله وانقيادا لأمره فدعاهم إلى كتاب الله ليكون الحكم ولكنهم علموا أنهم منحرفون عن الكتاب حائدون عن الحق وأن ما في الكتاب يثبت أنهم مخطئون مجرمون فتولى فريق منهم وهم مُعْرِضُونْ.

---

١ تفسير المنار ٣/ ٢١٨

٢ وعبر هنا بقوله تعالى: (أُوتُوا نَصيبًا مِّنَ الْكِتَابِ) وفي الآيات السابقة قال سبحانه: (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُم الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهمْ. . .)، وذلك لأن الكلام هنا في الذين كانوا يعاصرون النبي - صلى الله عليه وسلم -، والذين كانوا يعاصرون النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن عندهم قطعا إلا حظ من الكتاب، ولم يكن عندهم كل الكتاب؛أما في الآيات السابقة فقد كان الكلام في الذين عاصروا النبيين السابقين من بني إسرائيل، وقد كان عندهم الكتاب كله، ومع ذلك ضلوا على علم، وذلك لسيطرة الهوى على قلوبهم، وغلبته على نفوسهم، فبغوا وطغوا، وقتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس. زهرة التفاسير ٣/ ١١٦٢

من التولي ما يكون عن بعض واجبات الإيمان:

وكما يكون التولي عن أصل الإيمان يكون عن بعض واجباته {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ } [البقرة: ٨٣] أخذ الله تعالى ميثاق بني إسرائيل على التوحيد إذ هو رأس الأمر كما أخذ ميثاقهم علىالعمل بالأوامر الشرعية التي ترفع درجة المؤمن عند الله وتحافظ على السلام الاجتماعي بين أفراد المجتمع

كما تجمع بين إحسان صلة الفرد بربه وبأصله وبالمجتمع من حوله والإحسان فوق العدل والإحسان يأسر الإنسان

(يُذكّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه)[1]

(قال – تعالى – : {ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ} [البقرة: ٨٣]أي ثم كان من أمركم بعد هذا الميثاق الذي فيه سعادتكم، أن توليتم عن العمل به، وأنتم في حالة الإعراض عنه وعدم الاكتراث له)[2]

نموذج لأشد المعرضين: اختار الله سبحانه وتعالى لقصصه الذي جعله عبرة للمعتبرين بني إسرائيل، لأنهم اتصلوا بالعرب، ولأن النبوات المعروفة للعالم في عصر نزول القرآن كانت فيهم، ولأنهم يلتقون مع قريش في إبراهيم أبي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ولأنه تتمثل فيهم

---

١ تفسير ابن كثير ١/ ٣١٦

٢ تفسير المنار ١/ ٣٠٦

الطبائع البشرية في عزتها وانتصارها، وفي هزيمتها وانكسارها وتتمثل فيهم الطبيعة البشرية في لجاجة القول والمغالبة به في حال الضعف والاستخذاء، ونقدهم كل شيء في تلك الحال، وبعدهم عن العمل إلى الخلاف في المقال، وتتمثل فيهم الطبائع البشرية للجماعات المغلوبة عندما يعمل على إنقاذها من لم تنل الهزيمة من قلوبهم، ومن لم يستول الخور على نفوسهم)[1].

ومع ذلك خاطبهم القرآن: ومع كل هذه العلل النفسية والصفات التي تصد عن قبول النصيحة ومع ذلك تجد القرآن الكريم يحدثنا عن أناس يتمسكون بما هم عليه قد لا يقبلون المناقشة من الأساس قد تناقشهم فيخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك وقد يسيرون معك خطوة أو أكثر ثم يغلقون باب المناقشة ويغلقون معه نوافذ عقلهم حتى لا يتسرب لها النور فتنهدم صروح الباطل في قلوبهم ومن ثم تبدأ رحلة جديدة من البحث عن الحقيقه يخافون أن يتوهوا فيها فيستمسكون أشد الاستمساك بما هم عليه لأن في بقائه بقائهم.

---

١ زهرة التفاسير ٢/ ٨٨٠

الفصل الثاني أسباب الإعراض والتولي

أبان القرآن الكريم عن الأسباب التي تدعو الإنسان للإعراض عن هداية ربه والتولي عن وحي السماء وفي ذلك إيقاف لأهل الحق على هذه الأسباب ومن ثم مداوة أصحابها إن كان ينفع فيهم الدواء أو السلوى من عدم اهتدائهم بالحق

ويمكن عرض بعضا من هذه الأسباب والتي تتمثل فيما يلي:

المبحث الأول: القلب الأغلف:

ومن كبر المعرضين وعتوهم عن الحق يزعمون أن قلوبهم قد امتلأت بالعلم حتى نهايتها فليس للعلم الذي جاء به النبي الجديد – صلى الله عليه وسلم – مكان أو محل في قلوبهم هو علم زائد عن الحاجة فلا قيمة له قبحهم الله وقبح قولهم {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٥٥]وعلى القراءة الأخرى لكلمة غلف يكون معناها : قد علمنا العلم كله أوله وآخره وظاهره وباطنه وبمقاييس ما عندهم من العلم ليس ما يتكلم به محمد من العلم في قليل ولا كثير.

وقد نفى الحق سبحانه وتعالى كلا الادعائين وبين سبحانه وتعالى أن سبب عدم إيمانهم ليس امتلاء قلوبهم بالعلم حتى وصلت إلى حد الغلاف بل هو عقوبة من الله تعالى بجرمهم وما ربك بظلام للعبيد ومع هذه الادعاءات الباطلة والعقوبة الشديدة إلا أنه وجد منهم من آمن بالله واليوم الآخر ليكون حجة على كذب ادعائهم بأن قلوبهم غلف فقد اخترق نور الحق هذه الأغلفة عند بعضهم وللحق سلطانه وصولجانه، {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ } [البقرة: ٨٨]قال الإمام أبو السعود (وقيل : هو تخفيفُ غُلُفٌ جمع غِلاف، ويؤيده

ما رُوي عن أبي عمرو من القراءة بضمتين، يعنون أن قلوبنا أوعيةٌ للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاءٌ . وقال الكلبي : يعنون أن قلوبَنا لا يصل إليها حديثٌ إلا وعَتْه ولو كان في حديثك خيرٌ لوعتْه أيضاً)[1] (وقرأ الأعمش والأعرج وابن محيصن « غلّف » بتثقيل اللام جمع غلاف، ورويت عن أبي عمرو، فالمعنى هي أوعية للعلم والمعارف بزعمهم، فهي لا تحتاج إلى علم محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل : المعنى فكيف يعزب عنها علم محمد صلى الله عليه وسلم ؟، فرد الله تعالى عليهم بقوله : {بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ} [البقرة: ٨٨]، و { بل } في هذه الآية نقض للأول، وإضراب عنه، ثم بين تعالى أن السبب في نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لعنوا بما تقدم من كفرهم واجترامهم، وهذا هو هو الجزاء على الذنب فالذنب أعظم منه، واللعن: الإبعاد والطرد)[2] و(إنما أبعدهم الله – تعالى – من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين، وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرفوه اتباعا لأهوائهم، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه، فكان ذلك سببا في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين)، و { قليلاً } نعت لمصدر محذوف تقديره فإيماناً قليلاً ما يؤمنون، والضمير في { يؤمنون } لحاضري محمد صلى الله عليه وسلم، ويتجه قلة هذا الإيمان :

١- إما لأن من آمن بمحمد منهم قليل فيقل لقلة الرجال، قال هذا المعنى قتادة.

---

١ تفسير أبي السعود ١/ ١٦٢

٢ المحرر الوجيز ١/ ١١٥

٢- وإما لأن وقت إيمانهم عندما كانوا يستفتحون به قبل مبعثه قليل، إذ قد كفروا بعد ذلك.

٣- وإما لأنهم لم يبق لهم بعد كفرهم غير التوحيد على غير وجهه، إذ هم مجسمون فقد قللوه بجحدهم الرسل وتكذيبهم التوراة، فإنما يقل من حيث لا ينفعهم كذلك

وعلى هذا التأويل يجيء التقدير فإيماناً قليلاً، وعلى الذي قبله فوقتاً قليلاً، وعلى الذي قبله فعدداً من الرجال قليلاً })[1] .

ويبين الشيخ رشيد رضا ما عندهم من إيمان وصفه الله تعالى بأنه قليل فيقول(ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة في الجملة وكما تعطيه ظواهر الألفاظ، ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلا ولم يفقهوا حكمها وأسرارها، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم، ولم تكن هي المحركة لإرادتهم في أعمالهم، وإنما كان يحركها الهوى والشهوة، ويصرفها عامل اللذة، فالإيمان إنما كان عندهم قولا باللسان، ورسما يلوح في الخيال، تكذبه الأعمال وتطمسه السجايا الراسخة والخلال)[2].إيمان يستفيدون به من مزايا الإيمان في الدنيا؛ وجاهة عند الناس ورفعة شأن بينهم لكن إن جئت إلى التزامهم بهذا الدين وجدته لا شئ فلا إحقاق للحق ولا إبطال للباطل ولا أداء لواجب ولا نفقة في سبيل الله صغيرة او كبيرة

الأسباب التي تؤدي بالقلب لأن يكون أغلف :

يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن صنف من الكافرين يخاطبهم رسول كريم من رسل الله تعالى بأسلوب واضح يتتبع مواضع الشك في قلوبهم

---

١ تفسير المنار ١/ ٣١٣

٢ تفسير المنار ١/ ٣١٣

بالحجج الواضحة ويقدم الأدلة على صدقه لكن العليم الخبير سبحانه وتعالى ينبئنا أن هؤلاء الكافرين لا يستفيدون من كل ذلك لأن منافذ الإدراك عندهم مغلقة. {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ٦، ٧]

فهل إغلاق منافذ الإدراك وتعطل ملكاته عقوبة من الله تعالى وقعت عليهم بلا ذنب جنوه حاشا لله تعالى؟؟

القرآن الكريم يوضح الأسباب التي لأجلها عوقبوا بهذه العقوبة:

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [فصلت: ٥] بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ حِجَابًا مَانِعًا لَهُمْ مِنَ الِاتِّصَالِ وَالِاتِّفَاقِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْحِجَابَ يَحْجُبُ كُلًّا مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ، وَيَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُؤْيَةِ مَا يُبْدِيهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْحَقِّ .

وَاللَّهُ – جَلَّ وَعَلَا – ذَكَرَ عَنْهُمْ هَذَا الْكَلَامَ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ، مَعَ أَنَّهُ – تَعَالَى – صَرَّحَ بِأَنَّهُ جَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْأَكِنَّةَ، وَفِي آذَانِهِمُ الْوَقْرَ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِهِ حِجَابًا عِنْدَ قِرَاءَتِهِ الْقُرْآنَ..قَالَ – تَعَالَى – «فِي الْكَهْفِ» : إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا [١٨ \ ٥٧] .

..اللَّهِ – تَعَالَى – ذَمَّهُمْ عَلَى دَعْوَاهُمُ الْأَكِنَّةَ وَالْوَقْرَ وَالْحِجَابَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ «فُصِّلَتْ»، وَبَيَّنَ فِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى أَنَّ مَا ذَمَّهُمْ عَلَى ادِّعَائِهِ وَاقِعٌ بِهِمْ فِعْلًا، وَأَنَّهُ – تَعَالَى – هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ فِيهِمْ .

فَيُقَالُ : فَكَيْفَ يُذَمُّونَ عَلَى قَوْلِ شَيْءٍ هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ؟

وَالتَّحْقِيقُ فِي الْجَوَابِ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا جَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْأَكِنَّةَ، وَطَبَعَ عَلَيْهَا وَخَتَمَ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ الْوَقْرَ فِي آذَانِهِمْ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ

الْمَوَانِعِ مِنَ الْهُدَى - بِسَبَبِ أَنَّهُمْ بَادَرُوا إِلَى الْكُفْرِ، وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ، فَجَزَاهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الذَّنْبِ الْأَعْظَمِ طَمْسَ الْبَصِيرَةِ، وَالْعَمَى عَنِ الْهُدَى، جَزَاءً وِفَاقًا)[1] .

ما هي الذنوب التي وقعوا فيها فعاقبهم الله تعالى بالإعراض عن كتابه ؟ والذي يتلخص من كلام أهل التفسير في بيان هذه الذنوب عند كلامهم على قوله تعالى {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ٧].

١-إتباع الشيطان لدرجة الانقياد الكامل.

٢-الإيغال في الوقوع في الذنوب حتى تحيط بالقلب.

٣-تماديهم في الباطل وإعراضهم عن الحق.

٤-إغلاق طرق الوصول إلى الحق.

قال الإمام ابن كثير: (إنما ختم الله تعالى على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقًا على تماديهم في الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى...

وفي حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا"[2] الحديث...

---

١ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧/ ٦

٢ صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا

قال ابن جرير: فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى: { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ })[1]

أهل العناد الذين لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم وقد وصفهم الشيخ رشيد رضا بأنهم قلة مآلها إلى الانقراض وآخرون من الكافرين بينهم وبين الحق عداوة.

من أسباب إعراضهم عن الحق:

١-لأنهم يعلمون أن هذا الحق سينتقص منهم ما أخذوه بغير حق ويجهلون أنه سيعطيهم أكثر مما أخذ منهم. إن حبهم لما عندهم من الدنيا وانغماسهم في شهواتها يجعلهم يبغضون الحق ومن يدعو إليه لأنهم يرونه سبيلا إلى حرمانهم من متع الحياة التي حازوها بغير الحق لذا كلما لاح لهم فجر حق أو حقيقة تولوا وهم معرضون وتعلقوا بحجج لا تثبت أمام نظر واستدلال.

٢-ومنهم من يغرق في شهوات الدنيا الخسيسه فتحجبه عن رؤيا الحقائق العليا وتجعله أسير للسفاسف لا يكاد يرى غيرها يدور حول بطنه وفرجه فإن كانت له أثارة من عقل أو وعي وجهها لنيل مآربه الدنيوية ثم جعل يعب منه حتى الثمالة.

يأتي أهل الحق لكي يبينوا للناس أن وارء هذه اللذات معان عظيمه كفيلة بالسعادة والهناء والرخاء وقد وجدتُ هذا الصنف من الناس

---

١ تفسير ابن كثير ١/ ١٧٤

يتعجبون بل ربما يرمون أهل الحق الذين يعملون في سبيله بالجنون فهم أسرى للحظوظ الدنيا التي ينالونها من دنياهم والتي تنقضي أعمارهم في اللهاث خلف الفتات منها فإذا جاءهم من يقول وراء الأكمة ما ورائها، دافعوا عن معتقدهم ورموه بكل نقيصة وهؤلاء هم أسهل الناس انقيادا واستجابة لكل مخادع

أسباب الانهماك في شهوات الدنيا الخسيسة التي تؤدي إلى الإعراض عن الحق:

١-سيطرة الأوهام

٢- وغياب العلم.

٣-وانعدام التربية على الأخلاق الحسنة فماذا تنتظر من هؤلاء؟ لكني أرى أن هذه الفئة هي التي ينبغي أن توقد أمامها المشاعل ويتتبع منابع الجهل بالتغوير وتتعقب الأخلاق السيئة لتستبدل بالأخلاق الحسنة كل ذلك مع الصبر والمثابرة فهذا طريق الأنبياء ينقلون الناس من الظلمات إلى النور {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم: ١]

وفي القرآن الكريم خطاب لهذه الفئة من الناس حتى يعودوا عن غيهم وبسلوك طريق الحق مع تحمل لؤائه يتحول هؤلاء الناس خلقا آخر أصحاب همم عالية ترنوا أبصارهم إلى المجد وقد انخلعوا من ربقة العبودية يتطلعون إلى المعالي ويترفعون عن السفاسف ليلتحقوا بركب خير أمة أخرجت للناس اما الاعتقاد بان هؤلاء لن يخرجوا مما هم فيه فأرى أنه يحتاج إلى نظر

يقول الشيخ رشيد رضا:

(الكافرون أقسام :

(منهم) من يعرف الحق وينكره عنادا، وهؤلاء هم الأقلون ولا ثبات لهم ولا قوام، وكان منهم في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – جماعة من المشركين واليهود لم يلبثوا أن انقرضوا .

قال الأستاذ : كنت قلت في هذا المعنى كلمة جديرة بأن تحفظ وهي : " إن جحود الحق مع العلم به كاليقين في العلم، كلاهما قليل في الناس " .

(ومنهم) من لا يعرف الحق ولا يريد ولا يحب أن يعرفه، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [الأنفال: ٢٢، ٢٣] فهؤلاء كلما صاح بهم صائح الحق فزعوا ونفروا، وأعرضوا واستكبروا، ففي أنفسهم شعور بالحق ولكنهم يجدون فيها زلزلة، كلما لاح لهم شعاعه يحجبونه عن أعينهم بأيديهم، وسبب ذلك : أنهم لم يستعملوا أنظارهم في فهم الحق، ويخافون لو استعملوها أن ينقصهم شيء مما يظنونه خيرا، ويتوهمونه معقودا بعقائدهم التي وجدوا عليها آباءهم وساداتهم .

(ومنهم) : من مرضت نفسه واعتل وجدانه فلا يذوق للحق لذة، ولا تجد نفسه فيه رغبة، بل انصرف عنه إلى هموم أخر ملكت قلبه وأسرت فؤاده، كالهموم التي غلبت أغلب الناس اليوم على دينهم وعقولهم، وهي ما استغرقت كل ما توفر لديهم من عقل وإدراك، واستنفدت كل ما يملكون من حول وقوة في سبيل كسب مال أو توفير لذة جسمانية، أو قضاء شهوة وهمية، فعمي عليهم كل سبيل سوى سبل ما استهلكوا فيه، فإذا عرض عليهم حق، أو ناداهم إليه مناد، رأيتهم لا يفهمون ما يقول الداعي، ولا يميزون بين ما يدعو إليه وبين ما هم عليه، فيكون حظ الحق منهم الاستهزاء والاستهانة بأمره، فإذا وعدهم أو أوعدهم النذير،

قالوا : لا نصدق ولا نكذب حتى ننتهي إلى ذلك المصير، وهذا القسم كالذي قبله كثير العدد في الناس في كل زمان ومكان، وخصوصا في الأمم التي يفشو فيها الجهل، وتنطمس من أفرادها أعين الفطرة، وتنضب من أنفسهم ينابيع الفضائل، فيصبحون كالبهائم السائمة، لا هم لهم إلا فيما يملأ بطونهم أو يداعب أوهامهم،ويصح جمع هذين القسمين تحت قسم واحد، وهو قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين، والقسم الأول هو قسم المعاندين المكابرين.

فكل من هذه الفرق : { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [البقرة:٦])[1]

وقد تبين أن (الذين كفروا) المذكورين هنا هم فريق من المشركين الذين هم مأيوس من إيمانهم)[2].

يعتبر صاحب المنار هاتان الآيتان تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولأهل الحق معه فما عليهم أن لا يؤمن هؤلاء وقد بذلوا ما في وسعهم من بيان الحق بأجلى بيان وقابل ذلك المعرضون بأن أغمضوا أعينهم وأصموا آذانهم وإنسان هذا حاله كيف يسمع أو يبصر ومن ثم كيف يصل لحق أو حقيقه إنه نداء لأهل الإيمان ألا يفكروا فيهم فقد سقطوا من عين الله تعالى وسيأتي اليوم الذي يقولون فيه وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير

ويأتي بيان سبب استواء الإنذار وعدمه في قوله تعالى

---

١ تفسير المنار ١/ ١١٨

٢ التحرير والتنوير ١/ ٢٤٨

{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة: ٧]هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى: سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون [البقرة: ٦] وبيان لسببه في الواقع ليدفع بذلك تعجب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم مع وضوح دلائله)[1]

ونستفيد من ذلك أنه لا بد من رفع الحجب قبل عرض الحقائق وإلا يبقى صوت الداعية لا يجد من يسمعه.

من موجبات الحرمان الهداية:

وفي موضع آخر من كتاب الله تعالى تشير الآيات كذلك إلى استبعاد الهداية على أناس كفروا بعد إيمانهم وبعد شهادتهم أن الرسول حق وبعد رؤيتهم للبينات بعد كل هذه البينات – والتي كل واحد منها كفيل أن يحمل الإنسان على الحق حملا –هل يمكن لعاقل أن تنحل عقدة الإيمان في قلبه {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [آل عمران: ٨٦ – ٨٩] (وحالهم التي أوجبت هذا النفي مكونة من عناصر أربعة: إيمان في الابتداء، وشهادة بأن الرسول حق، وكون البينات قد جاءتهم موضحة لهذا الحق، ثم بعد ذلك يكفرون، فلو كان حالهم حال ضلال عن غير علم لأنار الله أبصارهم، ولو كانوا مخلصين جهلوا الحقيقة وطلبوها لكانت هداية الله

١ التحرير والتنوير ١/ ٢٥٤

لهم ثابتة، ولكنهم غير ذلك، فهم قد كانوا مؤمنين، ويشهدون بالحق، وذلك عن بينة وعن أدلة يقينية ملزمة، ومع ذلك استولى عليهم التعصب بالباطل، فكان العمى الذي أرادوه، فلا هداية إلى الحق من بعد، وذلك لأن الله تعالى يهدي إلى الحق مَنْ أخلصَ وطلبه، فإن الإخلاص يقذف في القلب بالنور فيكون الإشراق الروحي، وتكون الهداية الربانية، أما من قصد إلى الباطل، ولم يخلص وعكرت بصيرته بالهوى، فإنه يكون محروما من هداية الله، حتى يغير من حاله بأن يتوب عن غيه، ويخلص وينيب)[1] إنهم محرومون من الهداية الناشئة عن عناية الله بالعبد ولطفه به، وإسنادها إلى الله ظاهر و الهداية الناشئة عن إعمال الأدلة والاستنتاج منها، وإسنادها إلى الله لأنه موجد الأسباب ومسبباتها ... وإنما تسري الهداية لمن أنصف وتهيأ لإدراك الآيات دون القوم الذين ظلموا أنفسهم)[2].

هؤلاء الذين أعرضوا عن الحق بعد أن استبان لهم يحذرهم ربهم من عقاب أليم شديد يصيبهم في الدنيا والآخرة ولعن أهل السماء وأهل الأرض لهم،وعذاب دائم عاجل لا يقبل الإرجاء ولا التخفيف فمن يتحمل ذلك (وَلا هُمْ يُنظَرونَ) أي لَا يؤجلون ولا يؤخرون لمعذرة يعتذرون بها أو ليتمكنوا من إصلاح خطئهم، فإن الآخرة دار جزاء عما عملوا في الدنيا)[3]. (ولا راحة إلا في التخفيف أو التأخير (و)هما مرتفعان عنهم)[4]

---

١ زهرة التفاسير ٣/ ١٣٠٤

٢ التحرير والتنوير ٣/ ٣٠٣بتصرف يسير

٣ زهرة التفاسير ٣/ ١٣٠٨

٤ المحرر الوجيز ١/ ٤٥٨

المبحث الثاني النفور من الحق:

ومن بين أسباب الإعراض عن الحق النفور منه قوله تعالى: (فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) أي فما لأهل مكة أعرضوا وولوا عما جئتهم به)[1](مع تعاضدِ موجباتِ الإقبالِ عليهِ وتآخذِ الدواعِي إلى الإيمانِ بهِ)[2]

(إن الإنسان ذا الفكر الحصيف لا يفر من عرض التذكرات الفكرية عليه بل يقبل عرضها ويقبل مناقشتها ثم هو بعد ذلك إما أن يقبلها وإما أن يرفضها ...وأبان النص علة المعرضين النفسية وهي أمران :

الأول الكبر عن اتباع الرسول لأن كل امرئ من هؤلاء يريد أن ينزل عليه من عند الله صحف منشرة فقال تعالى {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً} [المدثر: ٥٢]

الثاني جحودهم للبعث والحساب والجزاء يوم الدين فهم لا يخافون عقاب الله في الآخرة فقال تعالى {كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ} [المدثر: ٥٣])[3]

وهم ينفرون من جنس الحق (وجيء باسم التذكرة الظاهر دون أن يؤتى بضمير نحو: أن يقال: عنها معرضين، لئلا يختص الإنكار والتعجيب بإعراضهم عن تذكرة الإنذار بسقر، بل المقصود التعميم لإعراضهم عن كل تذكرة وأعظمها تذكرة القرآن..وفما لهم استفهام مستعمل في التعجيب من غرابة حالهم بحيث تجدر أن يستفهم عنها المستفهمون ...وشبهت حالة إعراضهم المتخيلة بحالة فرار حمر نافرة

---

١ تفسير القرطبي ١٩/ ٨٨

٢ تفسير أبي السعود ٦/ ٤١١

٣ فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الشيخ /عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني صـ ٥٣٩

مما ينفرها... إذا أحسسن بما يرهبنه..فهي تعدو بأقصى سرعة العدو)[١].

أسباب نفورهم من الحق: وقد ساق الحق سبحانه وتعالى سبب نفورهم من الحق،والحق رحمة من الله ينشرها على خلقه لكنهم لعنادهم أعرضوا عنها فماذا بعد الرحمة إلا الشقاء وبينوا الأسباب التي دعتهم إلى الإعراض عن رحمة الله تعالى وهي:

١-في قلوبهم أكنة

٢-وفي آذانهم وقر

٣-وبينهم وبين الداعي إلى رحمة الله تعالى حجاب

٤-وبعد هذه الموانع إصرار على الإعراض وسعي للتمسك به

وكان أمرهم على ما ساقه الله تعالى في قوله{حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ } [فصلت: ١ - ٥]

وفي قولهم في قلوبنا أكنة لم يتركوا للداعي ان يلحظ ذلك وهو ظاهر للعيان لكنهم بإعلانهم هذا يغلقون عليه كل باب يمكن أن يفكر في الولوج إليهم منه فإذا كانت آيات القرآن عربية مفصلة وفيها البشارة والنذارة فماذا سيقدم لهم الداعي بعد كل ذلك ليهتدوا؟!

ولأن المعرضين أعرضوا توقفت ملكة السماع عندهم

---

١ التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٢٩

(والجمع بين صفتي الرحمن الرحيم للإيماء إلى أن الرحمة صفة ذاتية لله تعالى، وأن متعلقها منتشر في المخلوقات .. وفي ذلك إيماء إلى استحماق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنهم أعرضوا عن رحمة، وأن الذين اهتدوا به هم أهل المرحمة)[1] وقد اهتدى أهل المرحمة بالآيات التي فصلها الله على علم هدى ورحمة لقوم يوقنون والتي تدعو كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يتأملها ويعتبر بها وكل من عنده مسكة من علم ونظر بان له أن كتاب الله تعالى هو الحق من ربه فقد (

{ فُصِّلَتْ ءاياته }أي ميزتْ بحسبِ النظمِ والمَعْنى وجُعلتْ تفاصيلَ في أساليبَ مختلفةٍ ومعانٍ متغايرةٍ من أحكامٍ وقصصٍ ومواعظَ وأمثالٍ ووعدٍ ووعيد . وقُرِىءَ فُصِلَتْ، أي فَرَقتْ بينَ الحقِّ والباطلِ، أو فُصلَ بعضُها من بعضٍ باختلافِ الأساليبِ والمعاني)[2] ومع كل هذا التفصيل الذي يتضح به الحق من الباطل إلا أن أكثر من تلقّاه قد أعرض عنه وكانوا كما قال الله {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } [فصلت: ٤]

(والفاء في قوله: فهم لا يسمعون للتفريع على الإعراض، أي فهم لا يلقون أسماعهم للقرآن فضلا عن تدبره، وهذا إجمال لإعراضهم. وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في فهم لا يسمعون دون أن يقول: فلا يسمعون لإفادة تقوي الحكم وتأكيده)[3].لقد بلغ من نفورهم عن الحق أنهم لا يسمعونه ولا يريدون أن يسمعوه وهم حريصون على ذلك كل

---

١ التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٣٠

٢ تفسير أبي السعود ٦/ ٤٧

٣ التحرير والتنوير ٢٤/٢٣٣

الحرص وقد فصل الله تعالى حالة إعراضهم عن سماع الحق على ما بينوه هم {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ } (الكنان : ما يجمع الشيء ويضمه ويحول بينه وبين غيره، ومنه: الكن ومنه : كنانة النبل، .. والوقر : الثقل في الأذن الذي يمنع السمع)[١].

(ومِنْ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَهُ حِجَابًا مَانِعًا لَهُمْ مِنَ الِاتِّصَالِ وَالِاتِّفَاقِ)[٢](والحجاب : الذي أشاروا إليه : هو مخالفته إياهم ودعوته إلى الله دون أصنامهم)[٣] (لِأَنَّ ذَلِكَ الْحِجَابَ يَحْجُبُ كُلًّا مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ، وَيَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُؤْيَةِ مَا يُبْدِيهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْحَقِّ)[٤] .

فالموانع من استخدام الحق داخلية وخارجية ويتمثل المانع الداخلي في الأكنة التي على القلب والوقر الذي على الأذن ويتمثل المانع الخارجي في الحجاب الذي بين الكفار والنبي صلى الله عليه وسلم .

وقد حكى القرآن الكريم قولهم ومن بيننا وبينك حجاب (أي هذا أمر يحجبنا عنك، وهذه مقالة تحتمل أن تكون معها قرينة الجد في المحاورة وتتضمن المباعدة، ويحتمل أن تكون معها قرينة الهزل والاستخفاف، وكذلك قوله : {فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ } [فصلت: ٥] يحتمل أن يكون القول تهديداً، ويحتمل أن يكون متاركة محضة)[٥] .

---

١ المحرر الوجيز ٦/ ١٨

٢ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧/ ٦

٣ المحرر الوجيز ١٩/٦

٤ أضواء البيان ٦/٧

٥ المحرر الوجيز ١٩/٦

وبعد أن أبدو كل هذه الموانع التي تحول بينهم وبين الحق أعلنوا أنهم مستمسكون بما هم عليه من باطل فقالوا (فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ" أي اعمل في هلاكنا فإنا عاملون في هلاكك، قاله الكلبي. وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها. وقيل: أعمل بما يقتضيه دينك، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا)[1].هذه أقوال أربعة(ولعل الخامس ما ذكره الكشاف:" فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك")[2] (إن سوابق أفكار الإنسان ومفهوماته ومعتقداته وعاداته الثابتات تعتبر في مشاعره الباطنة حتى عمق وجدانه أحيانا بمثابة أجزاء من ذاته وكيانه الذي يفتخر به ويحرص عليه ويدافع عنه وينصره من اي مخالف خارج عنه ومضاد له فهو تلقائيا يرفض التنازل عن شئ من سوابق أفكاره ومفهوماته ومعتقداته وعاداته الثابتات المتأصلات في كيانه كما لا يتنازل عن جزء من جسده من أساسيات جسده إلا عند الضرورة كالخوف على باقي أجزاء جسده من الهلاك)[3]

---

١ تفسير القرطبي ١٥/ ٣٤٠

٢ تفسير القرطبي ١٥/ ٣٤٠

٣ فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الشيخ /عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني حبنكه صـ٥٥٣

المبحث الثالث خلو قلوبهم من الخير :

يصف الله تعالى قبح حال المتولين عن الحق ويبين سبحانه سببا من أسباب توليهم فيقول{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [الأنفال: ٢٢، ٢٣] { وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْرًا } شيئاً من جنس الخيرِ الذي من جملته صرفُ قواهم إلى تحرّي الحقِّ واتباعِ الهدى)[١]

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وهُم مُّعْرِضونَ) ولو سمعوا سماع تدبر، وإمعان وإدراك ما صبروا على الحق، بل إن قلوبهم في ريب دائم مستمر، واضطراب لَا استقرار معه، فالحق يحتاج البقاءُ عليه إلى صبر، ودوام تأمل وتفكر؛ فليس الإيمان واقعة تمر، بل هو حال مستمرة دائمة، يغذيها التدبر، ويقويها طول التأمل، وهؤلاء، إن سمعوا وتفكروا حينا، لَا تستمر بشاشة الإيمان في قلوبهم)[٢].

(وَالْآيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُسْمِعْهُمْ، أَيْ لَمْ يُوَفِّقْهُمْ لِلسَّمَاعِ النَّافِعِ ؛ لِأَنَّ الْبَاعِثَ عَلَيْهِ هُوَ مَا فِي الْفِطْرَةِ مِنْ نُورِ الْحَقِّ الْمُحَبِّبِ لِلنَّفْسِ فِي الْخَيْرِ، وَقَدْ فَقَدُوا ذَلِكَ بِإِفْسَادِهِمْ لِفِطْرَتِهِمْ، وَإِطْفَائِهِمْ لِنُورِ الِاسْتِعْدَادِ لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ الَّذِي يُذَكِّيهِ سَمَاعُ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، فَصَارُوا مِمَّنْ وَصَفَهُمْ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ بِقَوْلِهِ : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٣ : ١٤) ..وَضَرَبَ الْمَثَلَ لِسَمَاعِهِمْ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى مِنْهَا : وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً

---

١ تفسير أبي السعود ٣/ ١٠٨

٢ زهرة التفاسير ٦/ ٣٠٩٦

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٢ : ١٧١) يَعْنِي أَنَّهُمْ كَسَارِحَةِ النَّعَمِ تَسْمَعُ الصُّرَاخَ النَّاعِقَ فَتَرْفَعُ رُءُوسَهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تَفْهَمُ لَهُ مَعْنًى، فَإِذَا سَكَتَ عَادَتْ إِلَى رَعْيِهَا)[1]

المبحث الرابع :من الأسباب المؤدية إلى التولي عن الحق الذنوب:قال تعالى {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ } [المائدة: ٤٩] ويصور الشيخ رشيد رضا معنى توليهم عن الحق فيقول: (اضطرابهم في دينهم، واستثقالهم لأحكام التوراة، وتحاكمهم إليك رجاء أن تتبع أهواءهم، وإعراضهم عن حكمك بالحق، ومحاولتهم لمخادعتك وفتنتك عن بعض ما أنزل الله إليك، كل هذه مقدمات من فساد الأخلاق وروابط الاجتماع لا بد أن تنتج وقوع عذاب بهم)[2]

ويبين الإمام القرطبي شيئا مما أصابهم بسبب بعض ما جنوه (قوله تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا) أي فإن أبوا حكمك وأعرضوا عنه (فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ) أي يعذبهم بالجلاء والجزية والقتل، وكذلك كان. وإنما قال:" بِبَعْضِ" لان المجازاة بالبعض كانت كافية في التدمير عليهم. (وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ) يعني اليهود)[3].

(وإنما عبر بذلك (ببعض ذنوبهم)إيذاناً بأن لهم ذنوباً كثيرة، هذا مع كمال عَظَمةِ واحدٍ من جملتها، وفي هذا الإبهام تعظيمٌ للتولِّي)[4]

---

١ تفسير المنار ٩/ ٥٢٢

٢- تفسير المنار ٦/ ٣٤٨

٣ تفسير القرطبي ٦/ ٢١٤

٤ تفسير أبي السعود ٢/ ٢٥١

ومن كبائر الذنوب التي تدعو إلى التولي عن الحق، إخلاف الوعد والكذب

{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [التوبة: ٧٥ – ٧٧]

تتحدث الآيات عن قوم عاهدوا ربهم تبارك وتعالى على الإنفاق والصلاح لكنهم نكثوا بعهدهم وتولوا عما عاهدوا الله عليه فعاقبهم المولى عز وجل بنفاق في قلوبهم يستمر معهم لا يوفقون بعده إلى توبة وما خلف الوعد مع البشر إلا جزء من النفاق فكيف إذا كان مع الخالق سبحانه وتعالى؟! وقد أبان الحق سبحانه وتعالى عن سبب هذا الجزاء الوفاق وهو خلف الوعد والكذب (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ يُقَالُ : أَعْقَبَهُ الشَّيْءَ إِذَا جَعَلَهُ عَاقِبَةَ أَمْرِهِ وَثَمَرَتَهُ أَيْ : فَأَعْقَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى، أَوْ أَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ الْبُخْلَ وَتَوَلِّي الْإِعْرَاضِ، بَعْدَ الْعَهْدِ الْمُوَثَّقِ بِأَوْكَدِ الْإِيمَانِ، نِفَاقًا رَاسِخًا فِي قُلُوبِهِمْ مُتَمَكِّنًا مِنْهَا مُلَازِمًا لَهَا : إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ لِلْحِسَابِ فِي الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَ الْمُنْتَهَى الَّذِي لَا رَجَاءَ مَعَهُ فِي التَّوْبَةِ . ذَلِكَ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ فَذَكَرَ سَبَبَيْنِ هُمَا أَخَصُّ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، وَأَظْهَرُ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نِفَاقِهِمْ : إِخْلَافُ الْوَعْدِ، وَالْكَذِبُ ..، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْوَعْدُ لِلَّهِ تَعَالَى مَعَ الْعَهْدِ وَالْقَسَمِ ... وَإِسْنَادُ إِعْقَابِهِمُ النِّفَاقَ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَوْ إِلَى الْبُخْلِ وَالتَّوَلِّي عَنِ الطَّاعَةِ قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ مَآلُهُمَا وَاحِدٌ، إِلَّا أَنَّ الثَّانِي آدَبُ . وَذَلِكَ أَنَّ سُنَّتَهُ تَعَالَى فِي الْبَشَرِ أَنَّ الْعَمَلَ بِمَا يَقْتَضِيهِ النِّفَاقُ يُمَكِّنُ النِّفَاقَ وَيُقَوِّيهِ فِي الْقَلْبِ . كَمَا أَنَّ الْعَمَلَ بِمُقْتَضَى الْإِيمَانِ يَزِيدُهُ قُوَّةً وَرُسُوخًا فِي النَّفْسِ، وَهَكَذَا جَمِيعُ صِفَاتِ النَّفْسِ وَأَخْلَاقِهَا

وَعَقَائِدِهَا، تُقَوِّي وَتُرَسِّخُ الْعَمَلَ الَّذِي يَصْدُرُ عَنْهَا، فَإِسْنَادُهَا إِلَى الْعَمَلِ يَكُونُ صَحِيحًا بِهَذَا الاعْتِبَارِ لَا بِالْمَعْنَى الَّذِي تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ الْقَدَرِيَّةُ، كَمَا أَنَّ إِسْنَادَهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى يَكُونُ صَحِيحًا ؛ لِأَنَّهَا مُقْتَضَى سُنَّتِهِ وَتَقْدِيرِهِ، لَا بِالْمَعْنَى الَّذِي تَقُولُهُ الْجَبْرِيَّةُ وَالصُّوفِيَّةُ، فَالْمُرَادُ مِنَ التَّقْدِيرَيْنِ وَاحِدٌ)[1]

.

هؤلاء الذين ضلوا عن سواء السبيل وأعرضوا عن الحق لم يعرضوا لأن الحق لم يتضح لهم بل أعرضوا مع توافر الأسباب الداعية للتفكر وما بعد التفكر الصحيح إلا الهداية للحق

توافر الأسباب الداعية للتفكر:

إن إصرار المبطلين على الإعراض لا يردهم عنه ظهور آية باهرة ولا حجة قاهرة وقد وصف الله تعالى حالهم فقال {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [القمر: ٢] (وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، ودلالة تدلهم على صدقة فيما جاءهم به عن ربهم، يعرضوا عنها، فيولوا مكذّبين بها مُنكرين أن يكون حقا يقينا، ويقولوا تكذيبا منهم بها، وإنكارا لها أن تكون حقا: هذا

---

١ وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ إِخْلَافِهِمُ الْوَعْدَ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي ؛ لِأَنَّهُ فِي حَادِثَةٍ وَقَعَتْ، وَعَبَّرَ عَنْ كَذِبِهِمْ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ الدَّالَّةِ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ شَأْنُهُم الدَّائِمُ الَّذِي هُوَ لَخَصُّ لَوَازِمِ النِّفَاقِ فَالْمُنَافِقُ مُضْطَرٌّ إِلَى الْكَذِبِ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَهُ يُخَالِفُ بَاطِنَهُ،وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ كِتْمَانِ مَا فِي بَاطِنِهِ، وَإِظْهَارِ خِلَافِهِ دَائِمًا لِئَلَّا يَظْهَرَ فَيُفْتَضَحَ وَيُعَاقَبَ، وَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْكَذِبِ تفسير المنار ١٠/ ٤٨٢

سحر سَحَرَنا به محمد حين خَيَّلَ إلينا أنا نرى القمر منفلقا باثنين بسحره، وهو سحر مستمرّ..

وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يوجه قوله(مُسْتَمِرٌّ) إلى أنه مستفعل من الإمرار من قولهم: قد مرّ الجبل: إذا صلب وقوي واشتدّ وأمررته أنا: إذا فتلته فتلا شديدا)[1].والسبب فيما هم فيه من الإعراض عن الحق، التكذيب واتباع الهوى

(يقول تعالى ذكره: وكذّب هؤلاء المشركون من قريش بآيات الله بعد ما أتتهم حقيقتها، وعاينوا الدلالة على صحتها برؤيتهم القمر منفلقا فلقتين(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) يقول: وآثروا اتباع ما دعتهم إليه أهواء أنفسهم من تكذيب ذلك على التصديق بما قد أيقنوا صحته من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، وحقيقة ما جاءهم به من ربهم)[2]

ومع ما رأوا من آيات تدعو أصحاب البصر والبصائر إلى الخضوع لسلطان الله واتباع الحق ومع ما جاءهم من مصير من سبقهم من المعرضين ما كان فيه أكبر رادع عن الإعراض إلا أنهم بقوا كما هم لا يقبلون بآية ولا يرتدعون بعذاب (وقوله(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ) يقول تعالى ذكره: ولقد جاء هؤلاء المشركين من قريش الذين كذّبوا بآيات الله، واتبعوا أهواءهم من الأخبار عن الأمم السالفة، الذين كانوا من تكذيب رسل الله على مثل الذي هم عليه، وأحلّ الله بهم من عقوباته ما قصّ في هذا القرآن ما فيه لهم مزدجر، يعني: ما يردعهم،

---

١ تفسير الطبري٢٢/ ٥٧٠

٢ تفسير الطبري٢٢/ ٥٧١

ويزجرهم عما هم عليه مقيمون، من التكذيب بآيات الله، وهو مُفْتَعَلٌ من الزَّجْر)[1].

وهم في غيهم يعمهون لا تردهم عنه الآيات مهما كثرت فالعلامات الدالة على قدرة الله تعالى وقيوميته على الكون وتدبيره لأمور الخلائق مبثوثة فيما حولنا من كائنات وفي ذلك بيان للناس وهدى وموعظة لأولي الألباب ولكن المعرضين بمنأى عن ذلك الخير {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف: ١٠٥] (« وكأيّن » قال سيبويه : هي كاف التشبيه اتصلت بأي، ومعناها معنى كم في التكثير)[2]

(أي كأي عددٍ شئت من الآيات والعلاماتِ الدالةِ على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غيرِ هذه الآيةِ التي جئتَ بها {فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}أي كائنةٍ فيهما من الأجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغيّر أحوالها ومن الجبال والبحار وسائرِ ما في الأرض من العجائب الفائتةِ للحصر { يَمُرُّونَ عَلَيْهَا })[3] (والمرور مجاز مكني به عن التحقق والمشاهدة إذ لا يصح حمل المرور على المعنى الحقيقي بالنسبة لآيات السماوات.)[4].والآيات لا تقتصر على السموات فحسب فأينما ولى البصير بصره رأى ما يعيده إلى الحق ففي الأرض آيات للموقنين.

---

١ تفسير الطبري ٢٢/ ٥٧٢

٢ المحرر الوجيز ٤/ ٤٩

٣ تفسير أبي السعود٣/ ٤٧٦

٤ التحرير والتنوير١٣/ ٦٣

(وكأين من آية في السموات والأرض والمراد ما يرَون فيها(الأرض) من آثار الأمم الهالكةِ وغيرُ ذلك من الآيات والعبر { وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } غيرُ ناظرين إليها ولا متفكّرين فيها)[1] والذي حال بينهم وبين الاعتبار عدم قبولهم للحق

لقد رأوا من آثار القدرة الباهرة ما يدفعهم إلى الإيمان دفعا ورأوا ما حل بالمكذبين بربهم ورسله لكن اتباع الهوى كان حجابا بينهم وبين الحق فأعرضوا عنه ومع ما سبق من موجبات الهداية ذكرّهم الأنبياء ومن تبعهم بإحسان بآيات ربهم إذا أعرضوا عنها أو أصابتهم الغفلة أو غلبهم الشيطان لكنهم بقوا على إعراضهم فلا أحد أظلم منهم لنفسه الآيات

ومن المعرضين عن الحق من استمرؤا الباطل حتى أشربت قلوبهم حبه رغم وضوح الدلائل على الحق والتي تتمثل في:

١- الأدلة الباهرة على قدرة الله وعظمته

٢- صفوة الله من خلقه الذين حملوا وحيه لإرشاد العباد إلى صرط الله الذي له ما في السموات والأرض.

٣- الوحي الإلهي الذي بيّن الهدى من الردى ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة

٤- ما في هذا الوحي من دحض الحجج التي يلقيها شياطين الإنس والجن حول الحق

---

١ تفسير أبي السعود ٣/ ٤٧٦

كل ما سبق ينير السبيل لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا لكن قوما توافرت لهم أسباب الرشاد ومع ذلك قال الله عنهم قال الله عنهم : قال تعالى

الفصل الثالث: العلاج

بعد أن ذكرنا صفات المعرضين وأسباب إعراضهم يأتي دور العلاج لهذا الالتواء البشري ليعود الإنسان إلى فطرته التي فطره الله عليها ولأجل ذلك أنزل الله الكتب وأرسل الرسل وبتتبع الطريق القرآني في علاج الإعراض والتولي عن الحق نجد أن منه ما يتصل بالمعرضين والمتولين عن الحق ومنه ما يتصل بالدعاة إلى الله تعالى

المبحث الأول: ما يتصل بالمعرضين والمتولين عن الحق:

وتتمثل ملامح المنهج الرباني في ما يلي:

أولا:حق كل معرض في سماع الحق مهما بلغ نفوره قال تعالى (فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا) هذه الآية تكشف عن صلاحية القرآن لإنذار أهل العناد والمراء مع أنهم (عوجٌ عن الحق مائلين إلى الباطل)[1] وقد فسر الإمام القرطبي الألد بأنه (الشديد الخصومة ..وقال أبو عبيدة: الألد الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل).[2]

(وَعَبَّرَ عَنِ الْكفَّار بِقوم لدّ ذَمًّا لَهُمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ إِيغَالٍ فِي الْمِرَاءِ وَالْمُكَابَرَةِ، أَيْ أَهْلُ تَصْمِيمٍ عَلَى بَاطِلِهِمْ، فَاللُّدُّ: جَمْعُ أَلَدٍّ، وَهُوَ الْأَقْوَى فِي اللَّدَدِ، وَهُوَ الْإِبَايَةُ مِنَ الِاعْتِرَافِ بِالْحَقِّ.

وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ كُفْرَهُمْ عَنْ عِنَادٍ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْحَقُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ [الْأَنْعَام: ٣٣])[3] .

---

١ تفسير ابن كثير ٥/ ٢٦٩

٢ تفسير القرطبي ١١/ ١٦٢

٣ التحرير والتنوير ١٦/ ١٧٦

(وخصوا بالإنذار لان الذي لا عناد عنده يسهل انقياده)[1] فهم مستمسكون بالباطل شديدوا الدفاع عنه ومع حالتهم هذه التي تصد كل من يفكر في هدايتهم إلا أن الله تعالى يعلن أن القرآن قد يسره الله تعالى وأنزل فيه ما يخوفهم عاقبة صنيعهم وإذا خاف العاقل ارتدع وعاد إلى الصراط السوي (والإنذار يزعج حسهم، وربما يهتدون، وإلا فهم في طريق الغواية سائرون وإن هؤلاء ربما يمهلهم اللَّه إلى يوم القيامة)[2](وَإِيقَاعُ لَفْظِ الْقَوْمِ عَلَيْهِمْ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ اللَّدَدَ شَأْنُهُمْ، وَهُوَ الصِّفَةُ الَّتِي تَقَوَّمَتْ مِنْهَا قَوْمِيَّتُهُمْ)[3] فالذي جمعهم ووحد رأيهم هو شدة العداوة للحق والمراء فيه.

ومع ذلك خاطبهم القرآن: القرآن الكريم يحدثنا عن أناس يتمسكون بما هم عليه قد لا يقبلون المناقشة من الأساس قد تناقشهم فيخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك وقد يسيرون معك خطوة أو أكثر ثم يغلقون باب المناقشة ويغلقون معه نوافذ عقلهم حتى لا يتسرب لها النور فتنهدم صروح الباطل في قلوبهم ومن ثم تبدأ رحلة جديدة من البحث عن الحقيقه يخافون أن يتوهوا فيها فيستمسكون أشد الاستمساك بما هم عليه لأن في بقائه بقائهم.

القرآن في مواجهة المعرضين: القرآن أعظم ما يواجه بها المعرضون عن الحق و الله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجاهد الكفار بالقرآن فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا والكفر أحط درجات

---

١ تفسير القرطبي ١١/ ١٦٢

٢ زهرة التفاسير ٩/ ٤٦٩٦

٣ التحرير والتنوير ١٦/ ١٧٦

الإعراض وأسفل دركاته فالمعرضون عن الإيمان قد بلغوا الدرك الأسفل من الإعراض

خطاب للمعرضين:

وفي آيات الكتاب العزيز خطاب للمعرضين ولمن سلك سبيلهم يناجي القلب ويحرك العقل وتبدوا ملامحه من خلال هذه الآيات فيما يلي:{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } [البقرة: ٤٠ – ٤٣]

نلحظ في الآيات الكريمات ملامح خطاب المعرضين:

١-تذكير بنعم الله تعالى على خلقه وفي التذكير بالنعم تذكير بالمنعم سبحانه وتعالى وما له من حق.

(وتخصيصُ هذه الطائفة بالذكر والتذكير لما أنهم أوفرُ الناس نعمةً وأكثرهم كفراً بها { اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ } بالتفكر فيها والقيام بشكرها، وفيه إشعار بأنهم قد نسُوها بالكلية، ولم يُخطروها بالبال لا أنهم أهملوا شكرها فقط.. قيل:أريد بها ما أنعم به على آبائهم من النعم وعليهم من فنون النعم التي أجلُّها إدراكُ عصر النبي عليه السلام)[١] ومع إنعام الله عليهم وكفرانهم لنعمه سبحانه وتعالى – وهو من ألوان الإعراض – إلا أن الله تعالى يخاطبهم فيذكرهم بنعمه عليهم وعلى آبائهم ومن النعم دفع النقم ومنها الإمهال والمنعم قادر على

١ تفسير أبي السعود ١/ ١٢٣

سلب ما أنعم به (ولولا تلك النعم لهلك سلفهم أو لساءت حالهم فجاء أبناؤهم في شر حال. فيشمل هذا جميع النعم التي أنعم الله بها عليهم فهو بمنزلة اذكروا نعمي عليكم)[1]

(أمرهم بتفكر النعم التي أنعم بها عليكم لينصرفوا بذلك عن حسد غيرهم فإن تذكير الحسود بما عنده من النعم عظة له وصرف له عن الحسد الناشئ عن الاشتغال بنعم الغير)[2] وربما كان هذا الحسد من أقوى الدوافع لإغلاق القلب والعقل عن الاستماع للحق والتفكر فيه ومن أضرار الحسد على أهله منعهم من قبول الحق ومن ثم اتباع أهله فيأتيهم شياطين الإنس والجن وتحدثهم نفوسهم الأمارة بالسوء كيف تتركون ما أنتم فيه من القيادة والسيادة وتنقادون لهؤلاء أو تتساون معهم.

٢-حض على الوفاء بعقد الإيمان والجزاء من جنس العمل { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى } بالإيمان والطاعة { أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } بحسن الإثابة .. فإنه تعالى عَهِد إليهم بالإيمان والعملِ الصالحِ بنصب الدلائلِ وإرسال الرسل وإنزال الكتب ووعدهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما عَرْضٌ عريض)[3]

٣-حث على خشية الله تعالى وحده فهو شديد العقاب ذي الطول { وإياى فارهبون } فيما تأتون وما تذرون خصوصاً في نقض العهد .. والرهبة: خوف معه تحرز، والآية متضمنة للوعد والوعيد ودالة على

---

١ التحرير والتنوير ١/ ٤٥١

٢ التحرير والتنوير ١/ ٤٥٢

٣ تفسير أبي السعود١/ ١٢٣

وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي ألا يخاف إلا الله تعالى)[١] .

٤-دعوة إلى الإيمان بالمشترك من الوحي الجديد الذي يتفق مع ما تجدونه عندكم في التوارة والإنجيل)

ومعنى تصديقِه للتوراة أنه نازلٌ حسبما نُعت فيها أو من حيث أنه موافقٌ لها في القصص والمواعيدِ والدعوة إلى التوحيد والعدلِ بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش)[٢](قال عليه السلام : « لو كان موسى حياً لما وسِعه إلا اتّباعي » وتقييدُ المُنْزَلِ بكونه مصدقاً لما معهم لتأكيد وجوبِ الامتثالِ بالأمر فإن إيمانهم بما معهم مما يقتضي الإيمانَ بما يصدِّقه قطعاً)[٣] .من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم

({ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ } أي لا تسارعوا إلى الكفر به، فإن وظيفتكم أن تكونوا أولَ من آمن به لما أنكم تعرِفون شأنَه وحقِّيتَه بطريق التلقي مما معكم من الكتُب الإلهيةِ كما تعرِفون أبناءكم، وقد كنتم تستفتِحون به وتبشِّرون بزمانه كما سيجيء)[٤]

لا تكفروا بالوحي الجديد لقاء عرض زائل مهما بلغ فهو بالنسبة لما أعده الله للمصدقين قليل بل متاع الدنيا بأسرها قليل.

٥-دعوتهم إلى تقوى الله وحده نهي عن خلط الحق بالباطل ونهي كذلك عن كتمان الحق.

---

١ تفسير أبي السعود١/ ١٢٣

٢ تفسير أبي السعود ١/ ١٢٤

٣ تفسير أبي السعود ١/ ١٢٤

٤ تفسير أبي السعود ١/ ١٢٤

٦-نهيهم عن خيانة الرسالة وإلباس الحق ثوب الباطل والعكس ونهي عن كتمان الحق مع العلم بأنه حق أو مع العلم بجزاء لبس الحق بالباطل وكتمان الحق.

٧-دعوتهم لأن يسلكوا سبيل السعداء فيكونوا مع المصلين الركع السجود.

٨-تحذيرهم من خيانة الأمانة التي ائتمكنم الله عليها وهي وحيه إلى أنبيائه لا تبدلوا هذا الوحي بأي نوع من انواع التبديل كلبس الحق بالباطل وتحريف للكلم عن مواضعه وإدخال ما ليس فيه وجعله منه

٩-دعوتهم إلى العبادة التي تزكي النفوس وترتقي بالخلق إلى مدارج الكمال.

هذه التوجيهات التي تخاطب الحس والشعور هل يمكن القول أنها موجهة لطائفة من بني إسرائيل أم للجميع (فقوله: يا بني إسرائيل خطاب لذرية يعقوب وفي ذريته انحصر سائر الأمة اليهودية)[١]({أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ } [البقرة: ٤٤] تجريدٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى بعضهم بعد توجيهِه إلى الكل)[٢]

(وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامتهم لأن ما خوطبوا به هو من التذكير بنعمة الله على أسلافهم وبعهد الله لهم)[٣] وإذا اتفقنا أن الخطاب خاص بعلمائهم بقرينة قوله تعالى {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ } [البقرة: ٤٢] فإن كفر علمائهم أشد جرما لما عندهم من

---

١ التحرير والتنوير ١/ ٤٤٩

٢ تفسير أبي السعود ١/ ١٢٧

٣ التحرير والتنوير ١/ ٤٤٩

معرفة بالحق والواجب ومع ذلك خاطبهم الله تعالى بهذا الكلمات التي تجمع بين التذكير بنعم الله والتحذير من نقمه والنظر إلى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أولا على أنه وحي يوحى قال تعالى {وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ } [البقرة: ٤١] فليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم ولا هو من كلام الإنس والجن ثم هو مصدق لما معكم وكونه صدق الذي معكم وأنتم تعلمون أن النبي الذي جاء بهذا الوحي لم يطلع على ما معكم دلالة على أن الذي أوحى الذي معكم والذي معه هو الله سبحانه وتعالى.

لقد خاطبهم القرآن مع ما أبدوه من دعاوى تبدو لكل ذي بصر خلوها من كل أثارة للعقل ومن ذلك ما قصه الله تعالى علينا (فقال : {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً} [البقرة: ٨٠] قيل : هي أربعون يوما مدة عبادتهم العجل، والذي عليه أكثر اليهود أنها سبعة أيام ؛ لأن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة، فالإسرائيلي الذي لا تدركه الشفاعة يمكث في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة يوما، ومثل هذا الحكم لا يمكن القول به إلا بعهد من الله – تعالى – مالك يوم الدين والجزاء، وإلا كان افتئاتا عليه سبحانه، وقولا عليه بغير علم، وهذا ما رد به عليهم، ولله الحجة البالغة، وأمر رسوله أن يخاطبهم به بقوله : {قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ } [البقرة: ٨٠]، أي هل عهد الله إليكم ذلك ووعد به فكان حقا لكم عنده ؛ لأن الله لا يخلف عهده ؟

وقال ابن جرير وبعض المفسرين : معناه : هل اتخذتم عند الله عهدا باتباع شريعته اعتقادا وائتمارا وانتهاء وتخلقا، فأنتم واثقون بعهد الله في كتابه لمن كان كذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة ومغفرة ما عساه يفرط منه من السيئات أو العقوبة عليه مدة قصيرة ؟ !

والاستفهام للإنكار، أي لستم على عهد من الله – تعالى – ولذلك كذبهم بقوله : {أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: ٨٠]، أي أم تقولون على الله شيئا ليس لكم به علم، إذ العلم بمثله لا يكون إلا بوحي منه يبلغه عنه رسله، والقول على الله بغير علم جرأة وافتيات عليه وكفر به، والمعنى أنه لا بد من أحد الأمرين إذ لا واسطة بينهما : إما اتخاذ عهد الله، وإما القول على الله بغير علم، وإذا كان اتخاذ العهد لم يحصل، تعين أنكم تكذبون على الله بجهلكم وغروركم)[1] ويرشد الحق سبحانه وتعالى أصحاب هذا الادعاء الكاذب ومن سار سيرهم إلى أن استمراء العبد للذنوب حتى تحجب قلبه عن هداية الله تعالى سبب للخلود في النار {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً} [البقرة: ٨١]الآية، (بلى) مبطلة لدعواهم، .. ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها، وأخذها بجوانب إحساسه ووجدانه، كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجا منها، يرى نفسه حرا مطلقا وهو أسير الشهوات، وسجين الموبقات، ورهين الظلمات، وإنما تكون الإحاطة بالاسترسال في الذنوب، والتمادي على الإصرار..قلوبهم قد أصبحت في غلف من ظلمات المعاصي، حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه، ومن أحدث لكل سيئة يقع فيها توبة نصوحا وإقلاعا صحيحا، لا تحيط به الخطايا، ولا ترين على قلبه السيئات)[2] .

ثانيا اختيار أحسن الألفاظ عند دعوتهم وقد خاطبهم الله تعالى في كتابه فقال {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } وقال {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} ومن هذا الأدب الرباني

---

١ تفسير المنار ١/ ٣٠٠

٢ تفسير المنار ١/ ٣٠١

نتعلم أنه (ينبغي أن نختار عند الدعوة لأحد أحسن ما يدعى به وكيف نتقي ما يناسب ما نريد دعوته إليه فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته إليك ويفتح لك سمعه وقلبه ودعاؤه بما يكره يكون أول حائل يبعد بينك وبينه وإذا كان هذا الأدب عاما في كل تداع وتخاطب فأحق الناس بمراعاته هم الدعاة إلى الله والمبينون لدينه سواء دعوا المسلمين أو غير المسلمين[١]) وإذا لم يكن المدعو من بني إسرائيل ولا من أهل الكتاب فهو من بني آدم وقد أرسل الله له محمدا صلى الله عليه وسلم وخاطبه في كتابه الكريم بألوان الخطاب {يَا بَنِي آدَمَ } {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} {يَا عِبَادِيَ}

١ الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية للشيخ عبد الحميد بن باديس صـ٥١،٥٠

المبحث الثاني: ما يتصل بالدعاة إلى الله تعالى

استمساك الداعية بالصبر الجميل: العناد الذي يقود إلى الإعراض والتولي يحتاج الداعي معه إلى صبر جميل وحسن رجاء في الله تعالى،إن (الاستمرار في الدعوة والإلحاح في طلب الإيمان من ضرورات الدعوة إلى الله تعالى لأن غاية الدعوة إيجاد إنسان جديد ينخلع تمام من حياته وضلاله ليتحول إلى عبد رباني ينطوي باطنه على قبس من نور الله وتمتلئ جوارحه بالتقوى والطاعة والاستقامة على منهج الله

إن هذا الأمر لا يحتاج إلى مجرد العرض ولا يكفيه الطلب لمرة واحدة ألا ترى الطبيب يداوم العلاج حتى يشفى مريضه والتربية الجادة تحتاج إلى مداومة ومتابعة واستمرار مع مراحل العمر كله وليس هناك أسمى من الدعوة وكل بذل لها هو في الطريق الصحيح[1])

فمن أهل العناد من هو مستمسك بباطله استمساكه بالحياة لذا يعطي الحق سبحانه وتعالى للدعاة زادا روحيا يتمكنون به من عرض دعوتهم، والصبر والمصابرة على الاستمساك بالحق وحسن تقديمه للعالمين، ويتمثل هذا الزاد في قوله تعالى :

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٧ – ٩٩]

مظاهر تثبيت الله تعالى لقلوب الدعاة عند دعوتهم للمعرضين :

---

١ السلسلة الكاملة في تاريخ الدعوة إلى الله، دعوة الرسل د/أحمد غلوش صـ٧١

١-إشعار الداعي بأن الله تعالى عليم بما يلاقيه من إعراض قومه عنه وعلمه تعالى بثبات نبيه وبما يجده في سبيل الحق مؤذن بقرب فرجه تعالى غير أن نصر الله تعالى لا يعلم وقته إلا هو سبحانه . (لما كان الوعيد مؤذنا بإمهالهم قليلا كما قال تعالى: {وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا} [المزمل: ١١]كما دل عليه حرف التنفيس في قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر: ٣] طمأن الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه مطلع على تحرجه من أذاهم وبهتانهم من أقوال الشرك وأقوال الاستهزاء فأمره بالثبات والتفويض إلى ربه لأن الحكمة في إمهالهم، ولذلك افتتحت الجملة بلام القسم وحرف التحقيق.)[١] وفي (تأكيد علم الله بما يضيق به صدر نبيه الأمين تسرية لنفسه، وفيه كمال معاونته)[٢]

٢- تنزيه الله تعالى عن النقص الذي قد يتطرق إلى بعض النفوس من إمهال الله تعالى للمعرضين.(فإنه يحق الحق، ويبطل الباطل، ويجزي كلا بما يفعل، وهو القوي المتين)[٣]

٣- الاقتراب من الله تعالى بكثرة السجود فقد قال الله تعالى لنبيه واسجد واقترب.ومن كان الله معه فمعه القوة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادي الذي لا يضل و(إذا كان قد أصابك قلق النفس فعالجه: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)، أي فانزع إلى الله، واركن إليه بالتسبيح والحمد، فإن ذلك في ذاته كشف للكرب وبه زوال الهم، إذ فيه الركون إلى جانب القوي الذي لَا يناهده جانب لأي جانب من جوانب الدنيا)[٤]

---

١ التحرير والتنوير ١٤/ ٩١

٢ زهرة التفاسير٨/ ٤١١٨

٣ زهرة التفاسير ٨/ ٤١١٨

٤ زهرة التفاسير ٨/ ٤١١٨

٤- المداومة على العبادة ما بقي الداعية في دنياه استجابة لأمر الله تعالى واستمدادا لتوفيقه ومعونته (والأمر في وكن من الساجدين واعبد ربك مستعملان في طلب الدوام)[١](والسجود هنا إما أن نقول: إن معناه الخضوع المطلق لله تعالى، فالخضوع له وذكره هو اطمئنان القلوب، وقد قال تعالى: (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِن الْقُلُوبُ)، أو نقول: إنه سجود الصلاة، ويكون المعنى كن مستمرا في صلاتك، ففي الصلاة تفريج الكروب، وذهاب الأحزان، والانصراف عن الهموم)[٢] .

(الكثرة الكبرى من المفسرين يقولون: إن اليقين هنا هو الموت.. وهذا الكلام يشير إلى حقيقتين ثابتتين:

الحقيقة الأولى: وجوب العبادة طوال الحياة حتى الممات.

والحقيقة الثانية: فيه إشارة إلى أن العبادة تزيد اليقين فيزداد المؤمنون إيمانا إلى إيمانهم، ولله غيب السماوات والأرض وإليه مرجع الأمور)[٣].(

(إن حامل رسالة الرسول من أمته المؤهل لحملها مطالب بأن يصبر مستمرا في القيام بوظائفها دون أن يتضجر أو ييأس ويكف عن القيام بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متسرعا مغاضبا بل لك كلما يئس فعلا من مدعو معاند استبان له الحق وأصر على الكفر، تحول إلى آخرين لم يبلغوا بعد إلى دركة العناد والإصرار على الكفر فهذا التحول هو من عناصر الاستمرار على القيام بوظائف هذه الرسالة الربانية وعلى هذا الفهم يكون معنى {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [القلم:

---

١ التحرير والتنوير ٩١/١٤

٢ زهرة التفاسير٨/ ٤١١٨

٣ زهرة التفاسير ٨/ ٤١١٩

٤٨]فاصبر متباعا القيام بوظائف رسالتك انتظارا لحكم ربك فيمن عاندوا وأصروا على الكفر مع استبانة الحق لهم فلله حكمته في حكمه بعباده او فاصبر مستسلما لحكم ربك ... لقد أمر الله حامل رسالة الرسول من أمته بالصبر على ما يقال فيه والهجر الجميل إذا اقتضى الحال ذلك وبالإمهال والمطاولة وسعة الصدر لأن هذه السياسة هي الأجدى والأنفع لإقامة الحجة ولانتشار الدعوة ولتحقيق الإصلاح المنشود وتبليغ دين الله للناس على أكمل وجه وأتمه)[1]

عاقبة صبر الدعاة:

الله سبحانه وتعالى يمهل المعرضين عنه ويمنح الدعاة إليه صبرا من لدنه ورحمة يستعينون بها على غلظ قلوب المعرضين وظلام عقولهم وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وفي قصة البقرة التي أمر موسى قومه بذبحها وفي تعنتهم في بيان صفاتها وفي صبر موسى عليهم أعظم المثل لما ينبغي للدعاة إلى الله تعالى أن يستمسكوا به {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) } [البقرة: ٦٧ – ٦٩] ([في شأن النزول الآيات] ..روي عن ابن عباس وسائر المفسرين أن

---

١ فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الشيخ /عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني صـ١٣٢

رجلًا من بني إسرائيل قتل قريباً لكي يرثه ثم رماه في مجمع الطريق ثم شكا ذلك إلى موسى عليه السلام فاجتهد موسى في تعرف القاتل، فلما لم يظهر قالوا له : سل لنا ربك حتى يبينه، فسأله فأوحى اللّه إليه : {أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً} [البقرة: ٦٧]فتعجبوا من ذلك ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام حالًا بعد حال واستقصوا في طلب الوصف فلما تعينت لم يجدوها بذلك النعت إلا عند إنسان معين ولم يبعها إلا بأضعاف ثمنها، فاشتروها وذبحوها وأمرهم موسى أن يأخذوا عضواً منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فصار المقتول حياً وسمي لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قوداً)[1]

ويبدوا عنت هؤلاء وسفه عقولهم من خلال هذه الآيات:

١- أتتخذنا هزوا ومتى عرف اللهو عن نبي الله موسى عليه السلام حتى يتهم بهذه التهمة (والهزء: اللعب والسخرية. وقرأ الجحدري" أيتخذنا" بالياء، أي قال ذلك بعضهم لبعض فأجابهم موسى عليه السلام بقوله:" أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ" [البقرة: ٦٧] لان الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل، فاستعاذ منه عليه السلام، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء)[2] وسواء قالوه فيما بينهم أو واجهوا به موسى عليه السلام فإن هذا القول يدل على سوء أدب وقلة عقل وفساد في الدين

(وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله .. وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية، على نحو ما قال

---

١ مفاتيح الغيب ٣/ ٥٤٣

٢ تفسير القرطبي ١/ ٤٤٦

القائل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قسمة غنائم حنين: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله[١] .

وكما قال له الآخر: اعدل يا محمد[٢]. وفي هذا كله أدل دليل على قبح الجهل، وأنه مفسد للدين)[٣]

وبدلا من التفكر في الأمر الذي نقله لهم المعصوم صلى الله عليه وسلم لكي يزيل الإشكال الذي وقعوا فيه بوجود قتيل لا يعلم قاتله بدل من أن تتجه أنظارهم نحو الخروج مما هم فيه خرجوا بالأمر عن جادته وهذه صفة من يجحد الحق وحتى على القول بأن هذا السفه خرج منهم على جهة غلظ الطبع فإن غلظ الطبع يحول بين أهله وبين الحكماء ومن ثم كيف يصلون إلى الحقيقة فلما بين لهم نبي الله موسى أنه لا يستهزء بهم لأن الهزء صفة الجاهلين والنبوة تتنافى مع الجهل

طلبوا صفة في البقرة وما دروا أن هذا شأن الجهلاء ؛أمرهم موسى عليه السلام بذبح بقرة فطلبوا بيان صفتها ولا شك أن البقرة إذا وصفت وجب الاتيان بها على الصفة المذكور وليس كل البقر يحمل هذه الصفة فلا بد من بحث يصاحبه عناء لكي يجدوا البقرة التي تحمل الصفة المخصوصة فوصفت لهم البقرة وصفا يتطلب قدرا من العلم والعقل يحدد العوان التي هي بين الفارض والبكر وما كان أغناهم عن ذلك

---

١ صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب صـ٥٧٢

٢ مسند أحمد مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه ١٢٣/٢٣ وقال محققوه هذا حديث صحيح

٣ تفسير القرطبي ١/ ٤٤٧

ولكنهم طلبوا صفة أخرى بها تتميز البقرة المأمور بذبحها عن غيرها من البقر فوصفها الله تعالى بصفة أخرى هي صفراء فاقع لونها (الكسائي: يقال فقع لونها يفقع فقوعا إذا خلصت صفرته)[1]

(أَيْ هِيَ بَقَرَةٌ صَعْبَةٌ غَيْرُ رَيِّضَةٍ لَمْ تُذَلَّلْ بالعمل)[2]. (قَالَ الْحَسَنُ: وَكَانَتْ تِلْكَ الْبَقَرَةُ وَحْشِيَّةً وَلِهَذَا وَصَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهَا لَا تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ أَيْ لَا يُسْنَى بِهَا لِسَقْيِ الزَّرْعِ وَلَا يُسْقَى عليها)[3].

(قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُسَلَّمَةٌ) أَيْ هِيَ مُسَلَّمَةٌ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا، أَيْ أَنَّهَا بَقَرَةٌ مُسَلَّمَةٌ مِنَ الْعَرَجِ وَسَائِرِ الْعُيُوبِ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَا شِيَةَ فِيهَا) أَيْ لَيْسَ فِيهَا لَوْنٌ يُخَالِفُ مُعْظَمَ لَوْنِهَا، هِيَ صَفْرَاءُ كُلُّهَا لَا بَيَاضَ فِيهَا وَلَا حُمْرَةَ وَلَا سَوَادَ، كَمَا قَالَ:" فَاقِعٌ لَوْنُهَا")[4].

({ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ } قال الضحاك، عن ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها.

يعني أنَّهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها)[5].

({ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ } كادَ من أفعال المقاربة وُضع لدنوِّ الخبر من الحصول، والجملةُ حال من ضمير ذبحوا أي فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه، أو اعتراضٌ تذييلي ومآلُه استثقالُ استعصائِهم

---

١ تفسير القرطبي ١/ ٤٥١

٢ تفسير القرطبي ١/ ٤٥٢

٣ تفسير القرطبي ٥٢٣/١

٤ تفسير القرطبي ١/ ٤٥٤

٥ تفسير ابن كثير ١/ ٣٠١

واستبطاءٌ لهم وأنهم لفَرْط تطويلِهم وكثرةِ مراجعاتِهم ما كاد ينتهي خيطُ استفهامِهم فيها)[١] .

أكثروا على أنفسهم حين طلبوا عدة أوصاف للبقرة لكن الملاحظ أن الحق سبحانه يجيبهم وكلما أجابهم طلبوا وصفا آخر وبعد أن أكثروا من الأسئلة نفذوا ما طلب منهم وما كادوا يفعلون وكأنهم في كل سؤال للوصف يتلكأون حتى لا ينفذوا ما طلب منهم ومع ذلك يسير موسى عليهم السلام معهم إلى نهاية الطريق و في هذا درس للدعاة لكي يغلقوا أمام المعرضين كل سبيل للإجابة للحق [للنفور من الحق]بل ليظل الحوار وهو (تداول الكلام بين شخصين أو فريقين أيضا وكما أن الجدال هو تداول الكلام،كذلك الحوار هو تداول للكلام لكن الحوار لا يحمل صفة الخصومة، وإما يحمل صفة الحرص على العلم والفهم والمعرفة والاطلاع .

والدافع الأساسي للمحاور الجيد ليس إقناع من يحاوره بوجهة نظره وليس جعله يقف إلى جانبه وإنما دافعه الأساسي أن يُرِيَ محاوره ما لا يراه ؛أي: أن يدل محاوره على نقطة لا يراها أو خُفيت عليه، وأن يطلعه على شئ غائب عن ذهنه،شئ لا يعلمه، وفي الوقت نفسه – وهو يحاوره – يأمل أن يظفر هو أيضا من محاوره بأن يكشف له عن غموض أمور لا يراها او لا يعرفها .

إن كلا المتحاورين يطلبان العلم والوضوح ومعرفة الحق، ولا شك في أن بعض الحوار قد ينقلب إلى جدل عقيم ومقيت، كما أن بعض الجدل قد

---

١ تفسير أبي السعود ١/ ١٤٣

يتسم بالرفق والحكمة، ومهمتنا دائما أن نكون محاورين جيدين، ومجادلين بالتي هي أحسن، ودعاة إلى الحق بأحسن أسلوب وأرفع خلق وأكثر مراعاة لمن نجادلهم ونحاورهم وندعوهم)[1] وهذا يتطلب صبر جميل من الداعية واعتصام بالحق وكانت ثمرة الصبر الطويل على هؤلاء المراوغين أن فعلوا ما أمروا به بعد كل هذه المحاولات في الفرار من الاستجابة لما أمرهم به موسى ونفوسهم تحملهم على عدم الامتثال وقد بين ذلك قوله سبحانه

(فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ فالمعنى فذبحوا البقرة وما كادوا يذبحونها، وهاهنا بحث : وهو أن النحويين ذكروا «لكاد» تفسيرين. الأول : قالوا : إن نفيه إثبات وإثباته نفي. فقولنا : كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعل لكنه ما فعله وقولنا : ما كاد يفعل كذا معناه قرب من أن لايفعل لكنه فعله. والثاني :

وهو اختيار الشيخ عبد القاهر [الجرجاني] النحوي أن كاد معناه المقاربة فقولنا كاد يفعل معناه قرب من الفعل وقولنا ما كاد يفعل معناه ما قرب منه وللأولين أن يحتجوا على فساد هذا الثاني بهذه الآية لأن قوله تعالى: وَما كادُوا يَفْعَلُونَ معناه وما قاربوا الفعل ونفي المقاربة من الفعل يناقض إثبات وقوع الفعل، فلو كان كاد للمقاربة لزم وقوع التناقض في هذه الآية)[2].

---

١ التربية بالحوار د/عبدالكريم بكار صـ١٢،١٣ الناشر مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني ط/الأولى ١٤٣٠هـ

٢ مفاتيح الغيب ٣/ ٥٥٠

(بذل أقصى الطاقة وكل الممكن في عملية البلاغ فليست الدعوة شعارا يرفع أو عملا للمباهاة والراحة وإنما هي تكليف يحتاج إلى السعي المتواصل والعمل الدءوب والانتقال بالمستعين من دليل إلى دليل ومن حجة إلى حجة عسى أن يصل أحدها إلى شغاف القلب فينفتح ويدخل في دين الله تعالى)[1]

ثانيا:تسلية للدعاة:

لقي أنبياء الله تعالى من أقوامهم العنت والإعراض عن هداية الله تعالى لذا كانوا في أشد الحاجة إلى ما يثبتهم على طريق الدعوة وقد سلك القرآن الكريم عدة طرق :

١- بيان أن المعرضين قد أغلقوا قلوبهم قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ف(من لم يفتح سمعه وقلبه لتلقي الحق والرشاد لا ينفع فيه حرص ولا ارتياد)[2]

و (عدم اهتدائهم بالقرآن كان لعدم قابليتهم لا لنقص في دلالة القرآن على الخير وهديه إليه)[3]

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ٦، ٧] هاتان الآيتان تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولأهل الحق معه ما عليكم أن لا يؤمن هؤلاء وقد أغمضوا أعينهم وأصموا آذانهم وإنسان هذا حاله كيف يسمع أو يبصر ومن ثم كيف

---

١ السلسلة الكاملة في تاريخ الدعوة إلى الله، دعوة الرسل د/أحمد غلوش صـ٣٧٧

٢ التحرير والتنوير ١/ ٢٥٢

٣ التحرير والتنوير ١/ ٢٤٨

يصل لحق أو حقيقه لا تفكروا فيهم فقد سقطوا من عين الله تعالى {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: ١٠] فالقرآن الكريم يحمل كل مقومات الهداية لكن الذين كفروا بربهم يعدلون وليس للنبي صلى الله عليه وسلم سلطان يزعهم به إلى الحق إلا سلطان الوحي وهم قد حالوا بين قلوبهم وأنوار الهداية.

٢- ليس للداعية أي سلطان يقهر به المدعو على الحق ((فَذَكِّرْ) يا محمد عبادي بآياتي، وعظهم بحججي وبلِّغهم رسالتي(إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) يقول: إنما أرسلتك إليهم مذكرا لتذكرهم نعمتي عندهم، وتعرّفهم اللازم لهم، وتعظهم.

وقوله:(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) يقول: لست عليهم بمسلَّط، ولا أنت بجبار تحملهم على ما تريد)[١]

(وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان)[٢].

وبعد البلاغ المبين والحرص الشديد على هدايتهم {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: ٨٠] (ومن تولى أو أعرض واستمر على المكابرة فما أرسلناك عليهم حفيظا، أي حارسا لهم ومسؤولا عن إعراضهم، وهذا تعريض بهم وتهديد لهم بأن صرفه عن الاشتغال بهم، فيعلم أن الله سيتولى عقابهم)[٣]. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من الدعاة بإحسان لا يملكون رقاب الناس ولا مفاتيح قلوبهم وعقولهم والله تعالى يقول لنبيه

---

١ تفسير الطبري٢٤/ ٣٨٩

٢ تفسير ابن كثير ٨/ ٣٨٨

٣ التحرير والتنوير ٥/ ١٣٥

(فليس من شئون رسالتك أن تكرهه عليها ؛ لأننا أرسلناك مبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا لا حفيظا عليهم، أي : لا مسيطرا ورقيبا تحفظ على الناس أعمالهم فتكرههم على فعل الخير، ولا جبارا تجبرهم عليه، بل الإيمان والطاعة من الأمور الاختيارية التي تتبع الاقتناع)[١]

(و { حفيظاً } يحتمل معنيين، أي ليحفظهم حتى لا يقعوا في الكفر والمعاصي ونحوه، أو ليحفظ مساوئهم وذنوبهم ويحسبها عليهم)[٢]

٣- في الله تعالى عوض عن كل المعرضين والمتولين عن الحق فمن تولى عن النبي صلى الله عليه وسلم وما معه من الوحي فالله تعالى مولى الذين آمنوا والكافرين لا مولى لهم {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الأنفال: ٤٠]

٤-أن النصر من عند الله لا يتوقف على إيمان قوم فإن أعرضوا خشي أهل الحق الهزيمة والخذلان فإن (استمروا على خلافكم ومحاربتكم، { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ } سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير)[٣].وإن سلكوا سبيل الشيطان فسيهدي الله من هو خير منهم

٥-إذا كان في الناس من يتولى عن الحق ففيهم من يقبل عليه ويعمل به {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

---

١ تفسير المنار ٥/ ٢٢٨

٢ المحرر الوجيز ٢/ ١٥٩

٣ تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧

وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٤ – ٥٦]

والارتداد أسوء ألوان التولي عن الحق وفي هذا تسلية للمؤمنين فإن تنكب المتولون عن الحق سبل الرشاد فلله جنود السموات والأرض ومن جنوده من يستبدل بهم المتولون وذكر الله تعالى لهم صفات منها:

١-يحبهم ويحبونه وهذه من أعظم المنازل التي يمكن للعبد أن يتبؤها

٢- أذلة على المؤمنين يلينون في أيدي إخوانهم يطاوعونهم في المعروف

٣-أعزة على الكافرين ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

٤- يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم فهم قد آمنوا وتحقق إيمانهم وجهادهم أعظم البراهين على هذا الإيمان ولا يردهم عن قول الحق ونصرته بكل ما أمكنهم قول قائل

فإن كان هناك من والى الشيطان وجاهد في سبيله فإن هناك من والى الرحمن وإيمان قوم هذه صفاتهم يلتزمون بالحق ويلازمون أهله مما يسلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه بإحسان

ثالثا:تأييس من عودة المعرضين:

{كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) } [آل عمران: ٨٦ – ٨٩]

الآيات تخاطب نوعين من الناس الأول:من بخع نفسه وأذهبها حسرات على أناس تيسرت لهم سبل الهدى لكنهم استحبوا العمى، عندما يطالع هذا البيان الإلهي تستريح نفسه ويعلم أن هؤلاء يسيرون في طريق الردى الذي ينتهي بهم إلى غضب الله وعذابه.

(أما قوله – تعالى – : كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم فهو استبعاد

لهداية هؤلاء كما قال البيضاوي وإيئاس للنبي – صلى الله عليه وسلم – منهم)[1] واستبعاد هداية هؤلاء لأنهم (قد شهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات التي تبين بها الحق من الباطل والرشد من الغي، ولم يغن عنهم ذلك شيئا لغلبة العناد والاستكبار على نفوسهم، والحسد والبغي على قلوبهم، فكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم باستحباب العمى على الهدى) [2]((إن عقبة كبرهم وعجبهم بأنفسهم تحجب عنهم من الرؤية بمقدار عظمها وضخامتها وقد تنطمس بها بصيرتهم انطماسا كليا لذلك فهم يرفضون قبل أن يفكروا وربما لو فكروا لما رفضوا بل تقبلوا وشكروا)[3]

وممن أيأس الله نبيه من إسلامهم قوم من أهل الكتاب لايؤمنون مهما جاءهم بالآيات والحجج (قوله تعالى:" وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ"

---

١ تفسير المنار ٣/ ٢٩٨

٢ تفسير المنار ٣/ ٢٩٨

٣ فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الشيخ /عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني صـ ٥٣٠

(فلا يحزنك قولهم ولا إعراضهم ولا تحسبن الآيات والدلائل مقنعة أو صارفة لهم عن عنادهم، فهم قوم مقلدون لا نظر لهم ولا استدلال . وكما أيأسه من اتباعهم قبلته أيأسهم من اتباعه قبلتهم)[1].وقد كان في كتابهم ما يدفعهم إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء به في شأن القبلة وغيرها

وهذا (إيذان بكمال سوءِ حالِهم من العناد مع تحقيق ما يُرْغِمُهم منه من الكتاب الناطق بحقِّية ما كابروا في قبوله)[2]

والمراد بكل آية آيات متكاثرة والمراد بالآية الحجة: (وإنكارهم أحقية الكعبة بالاستقبال ليس عن شبهة حتى تزيله الحجة ولكنه مكابرة وعناد فلا جدوى في إطناب الاحتجاج عليهم)[3].لأنهم

(لَا تزيدهم الحجة القوية إلا إصرارًا، ولقد قال تعالى: (بِكُلِّ آيَة)، أي لو جمعت الحجج كلها، ورميت بها، ما تزايلوا عن إنكارهم الذي سيطر عليهم عداوة وبغضاء واستكبارا)[4]. (لأن كثرة الآيات وعظمها في نفسها لا يعجز المعاند عن اتباع هواه والاعتقاد لما يخالف هواه)[5].

وإذا كان الإعراض عن الحق مع وضوح الدلائل عليه من شأن علمائهم فما شأن عامتهم (وما يفعله أحبارهم يكون قدوة لعامتهم فإذا لم يتبع أحبارهم قبلة الإسلام فأجدر بعامتهم أن لا يتبعوها)[6].

---

١ تفسير المنار ٢/ ١٥

٢ تفسير أبي السعود ١/ ٢٢٢

٣ التحرير والتنوير ٢/ ٣٦

٤ زهرة التفاسير ١/ ٤٥٠

٥ تأويلات أهل السنة ١/ ٥٨٩

٦ التحرير والتنوير ٢/ ٣٥

الحق سبحانه وتعالى يقطع رجاء نبيه صلى الله عليه وسلم في أقوام لكل منهم ما يدفعه للإعراض:

١-فمنهم من افترى على الله الكذب ومن صنع ذلك كيف يتبع الحق وهو يُضل الناس

٢-الجهلة الذين يتبعون كل ناعق

٣-أهل الخسة الذين يبيعون النفيس بالرخيص { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

كيف تطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم محرفين وفريق جهلة وإذا انتفى إيمان أهل العلم منهم المظنون بهم تطلب الحق المنجي والاهتداء إلى التفرقة بينه وبين الباطل فكانوا يحرفون الدين ويكابرون فيما يسمعون من معجزة القرآن في الإخبار عن أسرار دينهم فكيف تطمعون أيضا في إيمان الفريق الأميين الذين هم أبعد عن معرفة الحق وألهى عن تطلبه وأضل في التفرقة بين الحق والباطل وأجدر بالاقتداء بأئمتهم وعلمائهم فالفريق الأول هم الماضون)[١].

١ التحرير والتنوير ١/ ٥٧٣

وقوله تعالى : { بأيديهم } بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم الله، وفرق بين من كتب وبين من أمر، إذ المتولي للفعل أشد مواقعة ممن لم يتوله، وإن كان رأياً له، وقال ابن السراج : هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم، وإن لم تكن حقيقة في كتب أيديهم)[1]

(وكرر الويل لتكرار الحالات التي استحقوه بها)[2].

(وشأن عامتهم، أنهم لا علم لهم بشيء من الكتاب، ولا معرفة لهم بالأحكام، وما عندهم من الدين فهو أماني يتمنونها وتجول صورها في خيالاتهم، وهذه الصور هي كل ما عندهم من العلم بدينهم، وما هم على بينة منها، وإنما هي ظنون يلهون بها، وهذا هو محل الذم لا مجرد كونهم أميين، فإن الأمي قد يتلقى العلم عن العلماء الثقات ويعقله عنهم بدليله فيكون علمه صحيحا، وهؤلاء لم يكونوا كذلك)[3].

وقد أيأس الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ومن تبعه بإحسان من إيمان أقوام بعد أن بذل الدعاة إلى الله تعالى ما أمكنهم من جهد وبينوا الحق بأجلى بيان وذلك حتى لا تذهب أنفسهم حسرات ولتنصرف جهودهم في الدعوة إلى الله تعالى وقد أبان أئمة التفسير الأسباب التي لأجلها حرم المعرضون من الهداية كما بدت من قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ٩٦] ويمكن إجمالها فيما يلي:

---

١ المحرر الوجيز ١/ ١٠٧

٢ المحرر الوجيز ١/ ١٠٧

٣ تفسير المنار ١/ ٢٩٧

١-أن ذنوبهم قد تراكمت على قلوبهم حتى حالت بينهم وبين رؤية الآيات البينات – سواء كانت في الكون من حولهم أو في الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه – والانصياع للحجج القاهرة (قال قتادة:الذين حق عليهم غضب الله وسخطه بمعصيتهم لا يؤمنون)[١]. لأنهم (فقدوا الاستعداد للاهتداء،لرسوخهم في الكفر والطغيان، وإحاطة خطاياهم وجهالاتهم بهم من كل مكان، وإعراضهم عن آيات الإيمان)[٢] .. (ولو جاءتهم كل آية) من الآيات الكونية كآيات موسى التي اقترحوها عليك أيها الرسول، والآيات المنزلة كآيات هذا القرآن العلمية العقلية الدالة بإعجازها على كونها من عند الله، وعلى حقية ما تدعوهم إليه وتنذرهم إياه)[٣]

٢-عدم استعدادهم لقبول الإيمان ونتج عن عدم الاستعداد هذا اختيار الكفر بديلا عن الإيمان

({ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ ءايَةٍ } واضحةُ المدلولِ مقبولةٌ لدى العقولِ لأن سببَ إيمانِهم وهو تعلقُ إرادته تعالى به مفقودٌ لكنّ فقدانَه ليس لمنعٍ منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارِهم المتفرِّعِ على عدم استعدادِهم لذلك)[٤]

٣-ومما نتج عن عدم استعدادهم لقبول الإيمان أن صاروا أهل مراء يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق.

---

١ تفسير القرطبي ٨/ ٣٨٣

٢ تفسير المنار ١١/ ٣٩٣

١- ٣ تفسير المنار ١١/ ٣٩٣

٤ تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٦

({ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ ءايَةٍ } واضحةُ المدلولِ مقبولةٌ لدى العقولِ لأن سببَ إيمانِهم وهو تعلقُ إرادته تعالى به مفقودٌ لكنّ فقدانَه ليس لمنعٍ منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارِهم المتفرِّعِ على عدم استعدادِهم لذلك { حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم } كدأب آلِ فرعونَ وأضرابهم)[1]

(فهم لا تجدي فيهم الحجة لأنهم أهل مكابرة، وليسوا طالبين للحق لأن الفطرة التي فطرت عليها عقولهم غير قابلة لحقائق الإيمان[2] ..تلك أماراتهم. وهذا مسوق مساق التأييس من إيمانهم.

إن الكفر ينمي بعضه بعضا، فالكافر يبدأ جاحدا ثم يعاند ثم يؤذي المؤمنين ويحاربهم ثم يسير في طريق الفساد حتى يتمكن الكفر منه فلا يؤمن)[3].

تصحيح لمفهوم التأييس: ((وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)، الخطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم –، أي إذا كانوا على هذه الحال من أن منافذ الحق قد سدت على أسماعهم وقلوبهم، فإن تدعهم إلى الهدى (فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)، أي ما داموا على هذه أو ما داموا في الدنيا وليس هذا تيئيسا للنبي – صلى الله عليه وسلم – من إيمانهم فلا يدعوهم، ولكنه بيان له لكي لَا يرجو إيمانهم بطرد الذين يدعون (ربهم

---

١ تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٦

٢ الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها هي قبول الحق وفي القمة منه الإقرار لله بالواحدانية لكن الأسرة والبيئة والهوى وشياطين الإنس والجن يعملون عملهم في إفسادها

٣ التحرير والتنوير ١١/ ٢٨٦

بالغداة والعشي يريدون وجهه، واليأس من إيمان قوم لَا يستدعي ترك الدعوة بل يوجب دعوة غيرهم، والاستمساك بمن آمنوا)[١].

((إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً) بسبب كفرهم، أي نحن منعنا الايمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم. (وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى) أي إلى الايمان، (فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً) نزل في قوم معينين، وهو يرد على القدرية قولهم)[٢].

(في قوم علم اللَّه أنهم لا يؤمنون ولا يتابعون محمدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ – في قبلته حيث آيسه عن متابعتهم إياه؛ لأنها لو كانت في أهل الكتاب كلهم لكان لهم الاحتجاج على رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ –، ودعوى الكذب عليه؛ لأن من أهل الكتاب من قد آمن. فدل أنهم لم يفهموا من عموم اللفظ عموم المراد، ولكن فهموا من عموم اللفظ خصوصًا. وكان ظاهرًا في أهل الإسلام وأهل الكفر جميعًا المعنى الذي وصفنا لك. فظهر أنه لا يجوز أن يفهم من مخرج عموم اللفظ عموم المراد.

وفيه دلالة إثبات رسالة مُحَمَّد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ –؛ لأنه في موضع الإخبار بالإياس عن الاتباع له.ولا يوصل إلى مثله إلا بالوحي عن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ)[٣].

(وإن دعوا إلى الهدى فإنهم لا يهتدون أبداً، وهذا يخرج على أحد تأويلين: أحدهما أن يكون هذا اللفظ العام يراد به الخاص، ممن حتم الله

---

١ زهرة التفاسير ٩/ ٤٥٥١

٢ تفسير القرطبي ١١/ ٧

٣ تأويلات أهل السنة ١/ ٥٨٩

عليه أن لا يؤمن ولا يهتدي أبداً، ويخرج عن العموم كل من قضى الله بهداه في ثاني حال، والآخر أن يريد : وإن تدعهم إلى الهدى جميعاً فلن يؤمنوا جميعاً أبداً، أي إنهم ربما آمن الأفراد، ويضطرنا إلى أحد هذين التأويلين، أنا نجد المخبر عنهم بهذا الخبر قد آمن منهم واهتدى كثير)[1]

.

رابعا: الإعراض عن المعرضين: وقد يسئ البعض فهم آيات من كتاب الله بما يوصله إلى تعطيل الدعوة إلى الله تعالى ومن هذه الآيات قوله تعالى فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى

(والمراد بالإعراض عن المعرضين وإعراض النبيء صلى الله عليه وسلم عنهم المأمور به مراد به عدم الاهتمام بنجاتهم لأنهم لم يقبلوا الإرشاد وإلا فإن النبيء صلى الله عليه وسلم مأمور بإدامة دعوتهم للإيمان فكما كان يدعوهم قبل نزول هذه الآية فقد دعاهم غير مرة بعد نزولها، على أن الدعوة لا تختص بهم فإنها ينتفع بها المؤمنون، ومن لم يسبق منه إعراض من المشركين فإنهم يسمعون ما أنذر به المعرضون ويتأملون فيما تصفهم به آيات القرآن، وبهذا تعلم أن لا علاقة لهذه الآية وأمثالها بالمتاركة ولا هي منسوخة بآيات القتال)[2] ولعل قوله:" وإعراض النبيء صلى الله عليه وسلم عنهم المأمور به مراد به عدم الاهتمام بنجاتهم" يحتاج إلى بيان فإن أراد به معنى قوله

١ المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠

٢ التحرير والتنوير ٢٧/ ١١٧

تعالى {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨]فهو الظن به وإن بدا من قوله هذا ترك دعوتهم فيدفعه قوله:" فكما كان يدعوهم قبل نزول هذه الآية فقد دعاهم غير مرة بعد نزولها " وقوله:" لا علاقة لهذه الآية وأمثالها بالمتاركة"ومن فوائد دعوتهم – وإن بدا منهم الإصرار على الإعراض – انتفاع غيرهم ممن يسمع من المؤمنين ومن الكفار غير المعرضين فيزداد الذين آمنوا إيمانا ويهدي الله لنوره من يشاء.

وقد وجهت آيات القرآن الكريم أنظار المعرضين إلى آيات الله في الأنفس والآفاق وكشفت عن إصرارهم على الضلال وأبانت لهم عن مصير المعرضين ممن سبقهم وقد يسبق إلى الذهن أن هذه الآيات التي تظهر مدى الاعوجاج عن الفطرة السليمة والعداء للحق ستحول بين الدعاة إلى الله تعالى ودعوة هؤلاء المعرضين فكان قوله تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩] موضحا ما يجب على الدعاة إلى الله تعالى مع المدعوين ليكون الداعية ساميا بإيمانه مستمسكا بالحكمة تنطلق أقواله وأفعاله لتكون على مستوى دعوته

(هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. فقوله: (خُذِ الْعَفْوَ) دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل في قوله: (وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار)[1].

ومن معاني الإعراض عن المعرضين: في قوله (وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

١ تفسير القرطبي ٧/ ٣٤٤

١- الحض على التعلق بالعلم.

٢-والإعراض عن أهل الظلم.

٣-والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة)[١] ومن ذلك عدم مماراتهم فإن المماراة تزيد من الشحناء والقلوب المليئة بالشحناء لأهل الحق لن تتبعهم ولو نادهم مناد من السماء،ويرى الشيخ رشيد رضا أن من معاني الإعراض عن الجاهلين:

ترك معاشرتهم وعدم مماراتهم، ولا علاج أوقى لأذاهم من الإعراض عنهم)[٢]

(وإنما يجب الإعراض عن السفهاء؛ لأنهم لا يطلبون الحق إذا فقدوه، ولا يأخذون فيما يخالف أهواءهم إذا وجدوه، ولا يرعون عهدا، ولا يحفظون ودا، ولا يشكرون من النعمة إلا ما اتصل مدده، فإذا انقطع عاد الشكر كفرا، واستحال المدح ذما)[٣] ويرى الإمام ابن جزي أن الإعراض عن الجاهلين معناه (لا تكافئ السفهاء بمثل قولهم أو فعلهم واحلم عنهم)[٤].كما يرى أبو السعود أن الإعراض عن الجاهلين يكون(من غير مماراةٍ ولا مكافأة)[٥]

وذلك وإن كان أمرا لنبيه صلى الله عليه وسلم فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من

---

١ تفسير القرطبي ٧/ ٣٤٤

٢ تفسير المنار ٩/ ٤٤٨

٣ تفسير المنار ٩/ ٤٤٩

٤ التسهيل لعلوم التنزيل محمد بن أحمد بن جزي ٣٣٤/١

٥ تفسير أبي السعود ٣/ ٨٨

حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب)[١].

٤-ومن معاني الإعراض عن المشركين عدم التوقف عن دعوتهم فهو إعراض عن صدودهم عن الحق وكأن الله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يلتفت إلى هذا الصدود فالله تعالى مقلب القلوب، وقد (أمر الله رسوله بأن يأمر الناس كلهم بكل خير وصلاح فيدخل في هذا العموم المشركون دخولا أوليا لأنهم سبب الأمر بهذا العموم أي لا يصدنك إعراضهم عن إعادة إرشادهم وهذا كقوله تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء: ٦٣].والإعراض هنا، مستعار لعدم المؤاخذة بما يسوء من أحد)[٢] فهو في معنى الصفح عنهم.

(بعد أن بين الله – سبحانه وتعالى – أن البراهين العقلية لَا تجدي معهم، وأن الأدلة الحسية لَا ترشدهم، وأنهم في الغي يعمهون فيه – أمر الله تعالى نبيه أن يستمر في دعوة الحق في رفق، وحكمة، وأن يبين مكارم الشريعة في ذاتها، فإنها بما فيها من صلاح ودفع فساد وهداية، داعية لنفسها من غير برهان ولا دليل، مع التأليف)[٣].

ومن الآيات التي قد يفهم منها أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يترك دعوة المتولين عن الحق قوله تعالى { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ

١ تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣٢

٢ التحرير والتنوير ٩/ ٢٢٨

٣ زهرة التفاسير ٦/ ٣٠٤١

(١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) } [الصافات: ١٧٤ – ١٨٢]وقد اختلفوا في تحديد الحين بدءا من غزوة بدر وانتهاء باليوم الذي ينقضي فيه أجل من تولى عن الهداية لكن الآية التالية تدحض الأمر بالترك فقد قال تعالى وأبصرهم ولم يرد فيها بما يبصِّر النبي صلى الله عليه وسلم من أمره الله بالتولي عنهم والإبصار هو عين الدعوة فهل يكون التولي عنهم معناه التولي عن قبائحهم وتوليهم عن الحق والإقبال على تبصيرهم بمآل من تولى عن الهدى

(قوله تعالى:" فَتَوَلَّ عَنْهُمْ" أي أعرض عنهم." حَتَّى حِينٍ" قال قتادة: إلى الموت. وقال الزجاج: إلى الوقت الذي أمهلوا إليه. وقال ابن عباس: يعني القتل ببدر. وقيل يعني فتح مكة. وقيل: الآية منسوخة بآية السيف)[١]." ولا يظنن ظان أن المهلة طويلة فسيأتيهم ما يوعدون (وَالْحِينُ: الْوَقْتُ. وَأَجْمَلَ هُنَا إِيمَاءً إِلَى تَقْلِيلِه)[٢] وهذا من تثبيت الله تعالى لنبيه ولمن تبعه بإحسان فما بعد الصبر بالله إلا النصر

(اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: غيَّى ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضا في معناها)[٣] .

---

١ تفسير القرطبي ١٥/ ١٣٩

٢ التحرير والتنوير ٢٣/ ١٩٦

٣ تفسير ابن كثير٧/ ٤٥

(أعاد عز وجل أمر نبيه بالتولي تحقيقاً لتأنيسه وتهمماً به، وأعاد وتوعدهم أيضاً لذلك) وقد سلى الله نبيه صلى الله عليه وسلم حين أمره بالتأمل في أحوالهم فإنها كاشفة عن سوء مآلهم إذ للهلاك طريق وهم يسيرون فيه بأقصى ما يستطيعون)[١] (وَمَعْنَى أَبْصِرْهُمْ انْظُرْ إِلَيْهِمْ، أَيْ مِنَ الْآنِ، وَعُدِّيَ (أَبْصِرْ) إِلَى ضَمِيرِهِمُ الدَّالِّ عَلَى ذَوَاتِهِمْ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ النَّظَرَ إِلَى ذَوَاتِهِمْ لَكِنْ إِلَى أَحْوَالِهِمْ، أَيْ تَأَمَّلْ أَحْوَالَهُمْ تَرَ كَيْفَ ننصرك عَلَيْهِمْ، وَهَذَا وَعِيدٌ بِمَا حَلَّ بِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ.)[٢]

(والمرادُ بالأمرِ بأبصارِهم الإيذانُ بغايةِ قُربِه كأنَّه بين يديه . { فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ } ما يقعَ حينئذٍ من الأمورِ، وسوفَ للوعيدِ دُون التَّبعيدِ)[٣] وفي ذلك (تسليةً لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم إثرَ تسليةٍ وتأكيدٍ لوقوعِ الميعادِ غبَّ تأكيدٍ مع ما في إطلاقِ الفعلينِ عن المفعولِ من الإيذانِ بأنَّ ما يُبصره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينئذٍ من فنونِ المسارِ وما يُبصرونه من أنواعِ المضارِّ لا يحيطُ به الوصفُ والبيانُ . وقيلَ : أُريد بالأوَّلِ عذابُ الدُّنيا، وبالثَّاني عذابُ الآخرةِ)[٤].وفي هذا الوعيد أكبر رادع لكل من تولى عن ذكر ربه

ثم ينزه الله سبحانه وتعالى ذاته المقدسة عن كل نقص ورد على الألسنة أو خطر على القلوب ومن ذلك إهماله تعالى لنصر عباده الصالحين ويبشر المرسلين بالسلامة من أذى أعدائهم الذي يؤدي إلى توقف دعوتهم

---

١ المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤

٢ التحرير والتنوير ٢٣/ ١٩٦

٣ تفسير أبي السعود ٥/ ٤٦٠

٤ تفسير أبي السعود ٥/ ٤٦٠

((سبحان رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ } تنزيهٌ لله سبحانَه عن كلِّ ما يصفُه المشركونَ به ممَّا لا يليقُ بجنابِ كبريائِه وجبروتِه ممَّا ذُكر في السُّورةِ الكريمةِ وما لم يُذكر من الأمورِ التي من جُملتِها تركُ إنجازِ الموعودِ على موجبِ كلمتِه السَّابقةِ لا سيَّما في حقِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم

.. وقولُه تعالى : {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } [الصافات: ١٨١]..إيذانٌ بأنَّهم سالمون عن كلِّ المكارِه فائزونَ بجميعِ المآربِ . وقولُه تعالى : {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: ١٨٢] إشارةٌ إلى وصفِه عزَّ وجلَّ بصفاتِه الكريمةِ الثُّبوتيةِ بعد التَّنبيهِ على اتِّصافِه بجميعِ صفاتِه السَّلبيةِ، وإيذانٌ باستتباعِها للأفعالِ الجميلةِ التي من جُملتِها إفاضتُه عليهم من فُنُونِ الكراماتِ السَّنيةِ والكمالاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ وإسباغِه عليهم وعلى مَن تبعهم من صُنوفِ النَّعماءِ الظَّاهرةِ والباطنةِ المُوجبةِ لحمدِه تعالى وإشعارٌ بأنَّ وُعدِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ من النُّصرةِ والغَلَبةِ قد تحقَّقتْ)[1]

ومن ثم فعلى أهل الحق ألا يشغلوا أنفسهم بمن تولى فيسكفي الله أوليائه بما شاء وكيف شاء

هؤلاء الذين أعرضوا عن هداية الله وحملت قلوبهم الغل والضغينة لأولياء الله بل لا يعلم ما في قلوبهم من شر وخبث إلا الله سبحانه وتعالى ولذلك أشار سبحانه وتعالى إليهم بقوله أولئك ل (ما فيه من معنى البُعد للتنبيه على بُعد منزلتِهم في الكفر والنفاقِ)[2]

١ تفسير أبي السعود ٥/ ٤٦١

٢ تفسير أبي السعود ٢/ ١٠٧

والإبهام في قوله تعالى (يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) للإشارة إلى خفائه إذ يخفونه ويبدون غيره، وإلى أنه شيء كثير من الفساد والانحراف النفسي يحكمون إخفاءه، وإلى تنوعه من رغبة في الكيد والأذى، والتفريق بين المؤمنين، ومماألأة المشركين، وغير ذلك)[١]

(ومع كل هذا الشر الذي بداخلهم يوجه الله سبحانه وتعالى سيد الدعاة إلى كيفية التعامل معهم بقوله {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا } [النساء: ٦٣]: (وهذه الطرق ثلاث مراحل متداخلة: أولاها – الإعراض عنهم بألا يقبل عليهم ليشعروا باستنكاره لأعمالهم، وأنه غير راض عنهم، وذلك في غير جفوة؛ لأنه إن كانت الجفوة كان العناد، فلا يمكن أن يصل إلى المرحلة الثانية)[٢]. وهذه المرحلة الأولى هي التي عبر عنها سبحانه بقوله تعالى: (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ).وقد فسر الإعراض بعدة تفسيرات منها عدم الإقبال عليهم إذا لاقوه صلى الله عليه وسلم أو عدم إظهار علمه صلى الله عليه وسلم ببواطنهم الفاسدة أو عدم معاقبتهم بسوء طويتهم أو عدم الحزن عليهم وهذه المعاني إن قلنا أن بعضها أو جميعها تفسير للإعراض لكن الإعراض لا يعني أبدا أن ينقطع عن دعوتهم وإرشادهم إلى طريق الخير فأعرض عنهم (اصْرِفْ وَجْهَكَ عَنْهُمْ وَلَا تُقْبِلْ عَلَيْهِمْ بِالْبَشَاشَةِ وَالتَّكْرِيمِ) [٣]

(ولا تُظهِرْ لهم علمَك بما في بواطنهم ولا تهتِكْ سترَهم حتى يبقَوْا على وجَلٍ وحذر)[٤]

---

١ زهرة التفاسير ٤/ ١٧٣٨

٢ زهرة التفاسير ٤/ ١٧٣٨

٣ تفسير المنار ٥/ ١٨٦

٤ تفسير أبي السعود ٢/ ١٠٧

وأعرض(عن معاقبتهم، وعن شغل البال بهم، وعن قبول أيمانهم الكاذبة في قوله { يحلفون[1] } وليس بالإعراض الذي هو القطيعة والهجر، فإن قوله : { وعظهم } يمنع من ذلك)[2](هَذَا الْإِعْرَاضُ إِعْرَاضُ صَفْحٍ أَوْ إِعْرَاضُ عَدَمِ الْحُزْنِ مِنْ صُدُودِهِمْ عَنْكَ، أَيْ لَا تَهْتَمَّ بِصُدُودِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ مُجَازِيهِمْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً، وَذَلِكَ إِبْلَاغٌ لَهُمْ فِي الْمَعْذِرَةِ، وَرَجَاءٌ لِصَلَاحِ حَالِهِمْ. شَأْنَ النَّاصِحِ السَّاعِي بِكُلِّ وَسِيلَةٍ إِلَى الْإِرْشَادِ وَالْهُدَى)[3]فالخطوة الأولى لعلاج هؤلاء هي الإعراض عنهم إعراض المغضب لا إعراض المنقطع فإن الانقطاع يولد الجفوة ومن ثم يزداد الصدود ويغلق من الأبواب ما كان مشرعا

والخطوة الثانية هي الوعظ وهو

(النُّصْحُ وَالتَّذْكِيرُ بِالْخَيْرِ وَالْحَثِّ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَرِقُّ لَهُ الْقَلْبُ، وَيَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ)[4] ومما يرقق القلب (الزجر مع التخويف بسوء العاقبة والمآل ونتائج أعمالهم، فإن ذلك قد يدفعهم إلى التفكير، ومع التفكير في العاقبة ينفتح باب الهداية وسلوك الطريق المستقيم)[5].

والخطوة الثالثة بعد الإعراض والوعظ في سبيل إصلاح القلوب الفاسدة التي بلغ فسادها المدى ({وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء: ٦٣]يَبْلُغُ مِنْ نُفُوسِهِمُ الْأَثَرَ الَّذِي تُرِيدُ أَنْ تُحْدِثَهُ فِيهَا.. وذلك يحدث فِي

---

[1] يشير إلى قوله تعالى {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا } [النساء: ٦٢]

[2] المحرر الوجيز ٢/ ١٤٩

[3] التحرير والتنوير٥/ ١٠٨

[4] التحرير والتنوير ٥/ ١٠٨

[5] زهرة التفاسير ١٧٣٨/٤

السِّرِّ دُونَ الْمَلَأ ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي السِّرِّ يَبْلُغُ مِنَ النَّفْسِ مَا لَا يَبْلُغُهُ الْكَلَامُ عَلَى مَسْمَعٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ مَنْ تُحَدِّثُهُ خَالِيًا لَا يَشْغَلُهُ عَنْ مَعْنَى حَدِيثِكَ مَا يَشْغَلُ غَيْرَهُ مِنْ ذَهَابِ نَفْسِهِ وَرَاءَ تَأْثِيرِ حَدِيثِكَ فِي نُفُوسِ النَّاسِ الَّذِينَ سَمِعُوهُ : هَلْ يَحْتَقِرُونَهُ بِهِ، هَلْ يُحَدِّثُونَ بِهِ غَيْرَهُمْ ؟ مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَ، وَأَنْ يَقُولَ إِذَا قِيلَ لَهُ فِيهِ أَوِ احْتُقِرَ لِأَجْلِهِ، وَقِيلَ : الْمَعْنَى : قَوْلًا بَلِيغًا فِي أَنْفُسِهِمْ أَيْ : يَغُوصُ فِيهَا وَيَبْلُغُ غَايَةَ مَا يُرَادُ بِهِ مِنْهَا)[1]

(وَالْبَلِيغُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى بَالِغٌ بُلُوغًا شَدِيدًا بِقُوَّةٍ، أَيْ: بَالِغًا إِلَى نُفُوسِهِمْ مُتَغَلْغِلًا فِيهَا.

وَقَوْلُهُ: فِي أَنْفُسِهِمْ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِقَوْلِهِ بَلِيغًا، وَإِنَّمَا قُدِّمَ الْمَجْرُورُ لِلِاهْتِمَامِ بِإِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ مَعَ الرِّعَايَةِ عَلَى الْفَاصِلَةِ)[2]

ويوضح الشيخ أبو زهرة مواصفات القول البليغ فيقول:(وذلك بأن يورد النبي – صلى الله عليه وسلم – القول على طريقة تجعلهم يقبلون قوله ولا ينفرون، فيقربهم ويدنيهم، ويأتيهم من قِبَل ما يألفون إن كان حقا.

وإن القول البليغ الذي يصل إلى كنه القلوب، يجب أن تتحقق فيه ثلاثة أوصاف: أولها، أن يكون المطلوب حقا، والثاني، أن يكون اللفظ مستقيما، والمعنى سليما، فلا يصل إلى الحق إلا بالحق، والثالث، أن يكون القول منبعثا من النفس، بحيث يؤمن القائل بصواب ما يقول، فإنه لَا يؤثر إلا المتأثر)[3].

---

١ تفسير المنار (٥/ ١٨٦

٢ التحرير والتنوير ٥/ ١٠٨

٣ زهرة التفاسير ٤/ ١٧٣٩

حولية
كلية
الدراسات
الإسلامية

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات:

أولا أهم النتائج:

١- يتفق أهل اللغة وأهل التفسير على أن التولي والإعراض مترادفين أو متقاربين، أما كتب التعريفات فترى أن من التولي ما يكون لعارض يزول بزواله أما الإعراض فينتج عن علة مستقرة في القلب لابد أن يتوجه لها الداعية بالدواء.

٢- أشد حالات النفور من الحق هي التي يجتمع فيها التولي مع الإعراض.

٣- يمكن تقسيم المعرضين عن الحق إلى العوام والعلماء ؛ومن صفات المعرضين من العوام:

أ- عدم الرجوع إلى الحق مع وضوح الدليل وتنوع طرق عرضه وذلك لأنهم يتبعون أهوائهم.

ب- أذى من يأمرهم بالمعروف لأنه يدعوهم إلى ترك ما ليس لهم بحق من حطام الدنيا.

ت- التعصب للتقاليد.

ث- التعنت في طلب الأدلة.

ومن صفات المعرضين من العلماء:

أ-اتباع الهوى بعد أن تبين الرشد من الغي.

ب-عدم تأثر قلوبهم بما عندهم من العلم.

٦-من التولي ما يكون عن الإيمان ومنه ما يكون عن بعض واجباته.

٧-أسباب التولي والتي تتلخص من الآيات المختارة في هذا البحث في القلب الأغلف الذي طمس الله على بصيرته لأنه اختار طريق الغواية،

النفور عن الحق استكبارا عن طاعة الله وإنكارا للحساب بين يدي الله، خلو قلوبهم من الخير وعدم رغبتهم في تحري الحق وسلوك سبيل المهتدين.

٨-القرآن الكريم يداوي علل النفوس ومن ذلك علتي الإعراض والتولي عن الحق وقد سلك القرآن الكريم في ذلك عدة طرق :

١-بيان حق المعرض والمتولي في سماع الحق فكما أنزل الله القرآن لتبشير المتقين كذلك أنزله لإنذار أهل اللدد .

إعراض المعرضين لا يحرمهم من سماع الدعوة إلى الله تعالى فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا

٢-من تثبيت الله تعالى للدعاة ما بينه سبحانه وتعالى لهم أن إعراض المعرضين بسبب عدم قبولهم للحق لا لنقص في الرسالة أو الرسول كما أوضح لهم أن الداعية لا يملك ما يقهر به المدعويين وأن الناس فيهم من يقبل على هداية الله تعالى وفيهم من يعرض عنها.

٣-من أئمة الكفر من هداهم الله تعالى بعد أن جحدوا بآيات الله وصدوا عن سبيله وهذا يدفع الدعاة إلى مواصلة الدعوة إلى الله تعالى ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويقبل من كتب الله تعالى له الهداية من المعرضين والمتولين فالله يهدي لنوره من يشاء.

٩- على الداعية وهو يتعامل مع المعرضين عن الحق أن يتحلى بمكارم الأخلاق ويستمسك بالحكمة في أقواله وأفعاله.

ثانيا التوصيات:

١-العناية بدراسة أحوال المدعويين من خلال القرآن الكريم.

٢-لابد من إزالة الحجب التي تحول بين الحق والمتولي والمعرض قبل دعوته .

٣-يحرص الداعية على أن تتوافر في خطابه موصفات القول البليغ قبل أن يتهم المدعو بالإعراض والتولي عن الحق إذ ربما كان العيب في طريقة البلاغ أو مضمونه أو في المبلغ.

٤-تقديم العلاج المناسب للمعرضين والمتولين عن الحق من خلال القرآن الكريم.

٥-الاستهداء بهدي القرآن الكريم في توصيف العلل البشرية وتقديم الدواء.

٦-العناية باللفتات الدعوية التي وردت في كتب التفسير واستخراجها من بين ثنايا الكتب لتكون في مجموعها منهجا دعويا مرتكزا على القرآن الكريم.

٧- قراءة القرآن الكريم قراءة دعوية.

الفهرس

مقدمة
تمهيد :الإعراض والتولي في كتب اللغة وكتب التعريفات وفي القرآن الكريم
الألفاظ ذات الصلة
الفرق بين التولي والإعراض
الفصل الأول: صفات المعرضين عن الحق
المبحث الأول: من صفات المعرضين من العوام
المبحث الثاني: من صفات المعرضين من العلماء
الفصل الثاني: أسباب الإعراض والتولي عن الحق
المبحث الأول: القلب الأغلف
المبحث الثاني: النفور من الحق
المبحث الثالث: خلو القلب من الخير
المبحث الرابع : الذنوب
الفصل الثالث العلاج:
المبحث الأول: ما يتصل بالمعرضين والمتولين عن الحق
المبحث الثاني: ما يتصل بالدعاة إلى الله تعالى

المراجع

القرآن الكريم

كتب السنة:

١- صحيح البخاري محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ط/دار السلام الرياض الثانية ١٤١٩هـ/١٩٩٩

٢-صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري المتوفى سنة ٢٦١هـ ط/دار السلام للنشر والتوزيع الرياض الثانية ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م

٣-مسند الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى : ٢٤١هـ)،تحقيق : شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون،إشراف : د عبد الله بن عبد المحسن التركي،الناشر : مؤسسة الرسالة،الطبعة : الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

كتب التفسير:

١-تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) تحقيق: سمير المجذوب،الناشر: المكتب الإسلامي،الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢-التبيان تفسير غريب القرآن شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري صـ ٣٧٥، تحقيق : د.فتحي أنور الدابولي،الناشر : دار الصحابة للتراث بطنطا – القاهرة، الطبعة الأولى.

٣-تفسير غريب القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي تحقيق د/عبد الله محمد عبدالرحمن احمد ٦١١/١ الناشر وزارة الأوقاف – الكويت الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٤-الجامع لأحكام القرآن،ا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)،تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش،الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة،الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٥-تفسير غريب القرآن كاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري، الناشر: دار بن حزم،الطبعة: الأولى ٢٠٠٨م.

٦-المحرر الوجيز أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى : ٥٤٢هـ).

٧-التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)،الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس،سنة النشر: ١٩٨٤ ه .

٨-زهرة التفاسير الشيخ محمد أبو زهرة ط/دار الفكر.

٩-تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى : ١٣٥٤هـ)،الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب،سنة النشر: ١٩٩٠ م.

١٠- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم،أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى : ٩٨٢هـ).

١١-تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ -٧٧٤ هـ]،تحقيق : سامي بن محمد سلامة،الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع،الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م .

١٢-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان،عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ.

١٣-جامع البيان في تفسير القرآن للطبري أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠)،تحقيق : مكتب التحقيق بدار هجر،الناشر : دار هجر.الطبعة : الأولى.

١٤-التسهيل لعلوم التنزيل محمد بن أحمد بن جزي ضبطه وصححه محمد سالم هاشم ط/دارالكتب العلمية، الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

كتب اللغة:

١-مقاييس اللغة أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا تحقيق : عبد السلام محمد هارون، الناشر : اتحاد الكتاب العرب،الطبعة : ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.

٢-لسان العرب محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)،الناشر: دار صادر - بيروت،الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٣-تهذيب اللغة أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري،تحقيق : محمد عوض مرعب،دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٠٠١م.

٤-تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي،تحقيق : مجموعة من المحققين،الناشر : دار الهداية.

كتب التعريفات:

١-كتاب الكليات أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي،تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري،دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢-التوقيف على مهمات التعاريف محمد عبد الرؤوف المناوي،تحقيق : د. محمد رضوان الداية،الناشر : دار الفكر المعاصر ، دار الفكر - بيروت، دمشق،الطبعة الأولى، ١٤١٠.

الدعوة والثقافة الإسلامية:

١-التربية بالحوار د/عبدالكريم بكار الناشر مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني ط/الأولى ١٤٣٠هـ.

٢-الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية للشيخ عبد الحميد بن باديس ضبط وتعليق علي بن حسن بن علي الناشر دار المنار.

٣-السلسلة الكاملة في تاريخ الدعوة إلى الله دعوة الرسل مؤسسة الرسالة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

٤-فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الشيخ /عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني حبنكه ط/دار القلم ١٤١٧/١٩٩٦.

٥-ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني ط/دار القلم دمشق الرابعة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م

حولية
كلية
الدراسات
الإسلامية